رواية

كارلوس ليسكانو

عربة المجانين

(سيرة السجن)



ترجمة: حسين عمر

المركز الثقافي العربي

كارلوس ليسكانو

عربة المجانين

العنوان الأصلي للرواية:

CARLOS LISCANO

LE FOURGON DES FOUS

الكتاب

عربة المجانين

تأليف

كارلوس ليسكانو

ترجمة

حسين عمر

الطبعة

الأولى، 2007

الترقيم الدولي:

ISBN: 9953-68-169-4

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

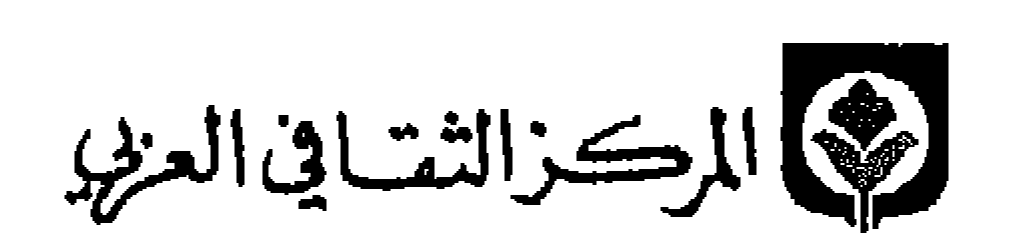
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

كارلوس ليسكانو

عربة المجانين

رواية

ترجمة: حسين عمر



إلى جميع المعتَقلين دفاعاً عن الحريّة.

حسين

ها قد مرّت أيامٌ عديدة وأنا في ثُكنةٍ للجيش، مقنّعاً حتى الكتفين، وسروالي وألبستي الداخلية وحذائي مبلّلة تماماً. أنا في الثالثة والعشرين من عمري. لا أعلم في أيّ يوم نحنٍ ولا كم الساعة. أعرف أننا في ساعةٍ متأخّرة من الليل. أُعدِتُ للتوّ من قاعة التعذيب الواقعة في الطابق السفلي، إلى اليسار من أسفل الدَّرَج. تُسمع صرخات العديد من المعذَّبين الذين يتوالون على قاعة التعذيب طوال الليل. لم أفكّر في أيِّ شيء سوى جسدي. أو الأحرى لم أفكّر فيه وإنّما تحسّسته: كان قذراً، تغمره آثار الضربات، منهكاً، تفوح منه رائحة كريهة، ناعساً وجائعاً. في تلك اللحظة شعرتُ أنّه ليس في الدنيا سوى جسدي وأنا. لم أجاهر نفسي بذلك وإنّما عرفته: لا أحد سوانا. وستمضي سنوات عديدة، تقارب الثلاثين، قبل أن أستطيع البوح بما أحسستُ به. لا أن أبوح «بما يُشعَرُ به» وإنّما بماذا شعرنا هو وأنا.

صندوقان في سيّارة

1

تعلّمتُ قراءة الوقت في السابعة من عمري، ولكن لم تكن لديّ ساعة. في تلك الفترة، وحدهم البالغون كانوا يملكون ساعات. فالساعة آلة نفيسة وغالية الثمن، تستوجب عنايةً كبيرة، ولا يُؤتَمن الأطفال عليها.

كنّا نسكن ثلاثتنا، أبي وأمّي وأنا، في حجرةٍ واحدة. حجرة مساحتها تقارب اثني عشر متراً مربّعاً، ستصبح ذات يومٍ غرفتي، وسأعيش فيها وحيداً لما يقارب عشر سنوات. هناك تعيش عائلة ليسكانو، التي هي عائلتي. بالكاد عرفتُ ذلك حينها، ولكنني فردٌ من آل ليسكانو، اللقب النادر في بلادي. لقد سبق وتعلّمت أن أوضّح بأنني لستُ لِسكانو ولا لاسكانو ولا لازكانو. ليسكانو مع حرفَي «ي» و «س». وبقيتُ أشرح ذلك طوال حياتي.

في تلك الليلة، أيقظني أبي. وهو ما لا يحدث عادةً. لماذا يُوقظني، ماذا يُريد منّي؟

كان الجوّ بارداً. رأيتُ أمّي، مرتدية ثيابها، جالسةً على السرير، واضعة إحدى يديها على بطنها، وهي تحاول طمأنةَ أبي. أمران لم أفهمهما: أبي الذي أيقظني بلا مبرّر، وأمي الجالسة هناك على سريرها وقد أمسكت ببطنها.

أخبرني أبي بأنّه علينا الذهاب إلى المستشفى، لأنّ أخي الصغير سيولَد. قبل بضعة أشهر، شهرين أو ثلاثة أو ربّما أربعة، كانت أمّي قد قالت لي، شاردة الذهن، بأنّه سيكون لي أخٌ صغير. كانت تطوي البياضات وترتّبها في الخزانة، حينما سألتني: أتودّ أن يكون لك أخٌ صغير؟

طبعاً لا. كنتُ على أحسن ما يُرام في وحدتي.

ولكنني أدركتُ أنّ أمّي لم تكن معنية بمعرفة رأيي بذلك، وإنّما كانت تُعلمني بالخبر.

الآن يتم إيقاظي ولا أعلم كم الساعة. لا أجيد تحديد الوقت، لا هذا الوقت ولا الوقت عموماً. حاول أبي أن يلبسني ثيابي. كان والدي أرعنَ. أرعنَ في كلِّ ما يفعله. كان قوياً وأرعنَ. كانت أميّ أفضل من أبي، تفهمني على الدوام. كانت قويّة وحاذقة وعطوفة. ولذلك، ساعدتْ أبي في إلباسي ثيابي رغم مشقّة حركتها.

ألبساني ثيابي، وصرنا في الشارع حيث يُخيّم الليل، وبرودة الجو الأشدّ ممّا في حجرتنا. وصلت سيارة أجرة وصعدنا فيها، رجلٌ في الحادية والثلاثين من عمره، وامرأة

في الخامسة والعشرين، حبلى، وطفلٌ في السابعة، وحقيبة. أعلم أنني لم أفكّر حينها في الأمر كما الآن، في الأعمار والتفاصيل، ولكني أعلم أنني كنتُ منذ البدء طفلاً هكذا، طفلاً يحسب ويحصي كل ما يقع تحت ناظريه، ولا يستطيع الامتناع عن ذلك، طوال حياته.

2

وصلنا، أمّي الممسكة ببطنها، وأبي العصبي، وحقيبة الثياب، وأنا، إلى المستشفى. أنا، الصبيّ الصغير، أعرف بدقّة أين وُلدت، في أيّ مستشفى، في أيّ يوم، في أيّة سنة، وفي أيّ ساعة. ولذلك عرفت أنّ هذا المستشفى ليس المستشفى الوحيد الذي ذهبتُ إليه ووُلِدتُ فيه. هذا المستشفى باذخ، وكان مستشفاي بائساً.

لماذا سيولَد أخي الصغير هنا، حيث لم أولَد؟ أجهل ذلك، لم أطرح السؤال. ذات يوم ستشرح أمّي لي ذلك. إنّها الآن عاملة نسيج ولها الحقّ في دخول هذا المستشفى، أمّا حينما وُلِدت فكانت ربّة منزل، ولم يكن لها هذا الحق.

تركني أبي، الساذج، في صالة الانتظار. ربّما اعتقد أنني رجلٌ، وأنّ الرجل يتدبّر أمره بمفرده. ربّما لشدّة توتّره لم يدرك بأنني لستُ إلاّ في السابعة من عمري. ولكنّه تركني هناك وتوارى مع أمّي.

بقيت وحيداً طوال ساعات. لم يكن هناك مَنْ أتحدّث إليه، ولا ما آكله أو أشربه، ولا ما ألعب به. كنتُ هناك، رجلاً في السابعة، حازماً، مثلما شاء أبي. في الواقع، قلّما اهتمّ بي أبي. ولم أسعَ من جهتي إلى خلق المشاكل لأمّي. فلْتفعل ما عليها فعله، ولْتَعد بسرعةٍ. كانت أمّي على الدوام تتأكّد بنفسها من كلّ شيء، أمّا أبي، فلم يكن كذلك. جلستُ أنتظرها. حينما ستفرَغ من عملها ستعود وتروي لي ما فعلته أثناء غيابها. فهي، دائماً، تروي لي كلّ شيء. أمّا أبي، فلا، ليس لديه الوقت أبداً، ليس لديه ما يقوله. إنّه صموت؛ أمّا هي فتشرح كلّ شيء. هذه هي حالهما.

أنا في صالة انتظار المستشفى الخالية، حيث سيولَد أخي الصغير. هنا، حيث سيولَد، لا يوجد أيّ شيء. هناك نبتة خضراء وأريكتان، وأناسٌ يمرون بين فينةٍ وأخرى، وأنا. ولذلك أنا وحيدٌ حقّاً.

الشيء الوحيد، الأكثر أو الأقلّ أهمية، الموجود هنا، هو بَنْدول ساعةٍ على الحائط. لم يكن هناك أيّ شيءٍ آخر مفيد. رنوتُ إليه محاولاً تقدير الوقت. لقد شُرِحَ لي بعض الشيء عن الوقت، ولكنني لا أجيد بعد تحديده. ركّزتُ تفكيري وجهدتُ لأرى ما يفعله البندول. ومرّ الوقت هكذا. ترقّبتُ الفواصل المنتظمة. وفجأةً، فهمتُ منطق عقارب الساعة. نظرتُ إلى كلٍّ خمسٍ دقائق، وأدركتُ

أنني أجيد الآن قراءة الوقت. ولكنّ البندول لا يتقدّم بالسرعة التي أريدها لكي يتمكّن من أن يبرهن لي على ذلك. إذا قلتُ إنّ الساعة هي الثانية وعشرون دقيقة، فليس من الغريب أن أقول لنفسي، بعد خمسِ دقائق، إنّ الساعة هي الثانية وخمس وعشرون دقيقة. أودّ أن تمرّ الدقائق مسرعةً، لتبرهن على معارفي. للحظات طويلة، نسيتُ أبي، الذي أخبرني بأنّه سيعود في الحال، ولكنّه لم يظهر، لا هو، ولا أمّي الموجودة في مكانٍ ما من أحد الطوابق، ولا أخي الصغير الذي سألعب معه كرة القدم. تعلّمتُ قراءة الوقت، وها هو شيءٌ أرويه لأمّي وأبي حينما ألتقي بهما من جديد.

3

فجأةً ظهر أبي. كان متعباً وفرحاً. كانت الساعة تقارب السابعة صباحاً. قال لي بأنّ أمّي وأختي الصغيرة بخير.

ما معنى هذا؟ لقد كنتُ قد وُعِدتُ بأخٍ صغير، لا بأختٍ صغيرة.

نعم، ولكن لم تكن الحال كذلك. إنّها طفلة. فاتنة.

بالنسبة لي، لا تفسير لذلك، إنّه أمرٌ لامنطقي. لم أستطع تقبّل فكرة خطئهما بهذه الطريقة. لا يمكن حتى اللعب بكرة القدم معها. ماذا بوسعي أن أفعله مع فتاة؟

بهذه الفكرة المستحيلة، أن تكون لي أخت، عدتُ بسيارة الأجرة إلى البيت صحبةَ أبي.

بعد الظهيرة، اصطحبتني جدّتي لرؤية أمّي. كانت في السرير. وإلى جانبها مهدٌ وصرّة. إنّها «الفتاة» التي عرضتاها عليّ، «إنّها الفاتنة».

نحن في الرابع والعشرين من أيار 1956. اليوم تعلّمتُ قراءة الساعة. اليوم وُلِدَت أختي. أمران سيكون لهما أهميّة طوال حياتي.

4

مونتِڤيديو، 27 أيار 1972. قبل ثلاثة أيام، بلغت أختي السادسة عشرة من عمرها، وأُقيمت لها حفلة، ذلك المساء. لم أكن حاضراً ذلك اللقاء العائلي. أعرف أنّ أمّي ستكون قلقة. وأنّ أبي يقول في نفسه إنّني في مكانٍ ما، يعلم اللّه بأيِّ أمرٍ منشغلٌ. وستعتقد أختي بأنني غير مهتمٍّ بها.

كانت لدي نيّة الذهاب إلى تلك الحفلة، وكنتُ قد أعلنتُ ذلك، ولكنني لن أذهب. لن أستطيع الذهاب. في الثانية فجراً، جاء العسكر يبحثون عنّي في بيتي. انتزعوني من السرير، حافي القدمين، وبالمايوه. وضعوا لي قناعاً، وقيّدوا يديّ خلف ظهري، ووضعوني على الرصيف قبالة الحائط. ثم وضعوني في شاحنة صغيرة وغادرنا.

5

سجن ليبيرتارد الإصلاحي، 31 أيار 1976. ها قد مرّت سنوات أربع وأنا في السجن. الآن، رفيقي في الزنزانة هو الشولو(*) غونزاليس، السبّاك. كان الشولو قد اعتُقِلَ، بعد أن كان فرّ من سجن بونتا كاريراس عام 1971. وفي عام 1972، لجأ إلى تشيلي، ثمّ إلى كوبا. في عام 1975، غادر كوبا، عن طريق موسكو، بوينس آيرس، قاصداً مونتِڤيديو. حينما وصل إلى مونتِڤيديو، اعتُقِلَ، وأُصيبَ بطلقة في وجهه. بعد أن تعرّض للتعذيب، اقتيد إلى السجن الإصلاحي، وأودِعَ زنزانتي. الشولو زعيمٌ نقابي، لم يدرس في المدرسة لوقت طويل، ولكنّه رجلٌ مثقّفٌ ومحبوبٌ وشهم.

للسجناء البائسين شغفٌ باستثمار الوقت. لا بدّ من

(*) الشولو تعني قاطع الطريق على الطريقة المكسيكية، ولكنه حسب وروده في هذا النص، هو بمثابة «القبضاي».

القيام بشيء إيجابي، شيء يهب الحياة كي لا يتحجّر المرء ويستسلم لمشيئة الجلاّدين. بعد أن تعارفنا بقليل، اتّفقنا، الشولو وأنا، على أن أساعده في دراسة اللغة الإسبانية. فلئن كان قادراً على المشاركة في النقاشات المعقّدة والعصيبة في المجالس، وعلى تنظيم الناس وقيادتهم، والسفر بأوراقٍ مزوّرة عبر العالم بأسره، فإنّه يعاني من صعوباتٍ في الكتابة. بتواضعٍ شديد، ارتضى أن أساعده. بحثتُ عن كتابٍ للغة الإسبانية، ومرّر أحدهم إليّ كتاباً يُستخدَم في السنة الأولى من الثانوية.

6

بما أنني لم أعرف كيف أبدأ درسي، قرأتُ بصوتٍ مرتفعٍ نصّ الدرس الأوّل، وعلّقتُ عليه، شارحاً كيف يُعرَفُ فعلٌ واسمٌ وصفةٌ. أشار إلى الكلمات التي لم يعرفها، فحاولت أن أشرح له ما حدّده.

ثمّ انتقلنا إلى تمارين الكتاب لهذا الدرس، وقمنا بحلّها، وقرّرنا أنّ يقرأ كلّ صباح النص ويحلّ التمارين، وأن أصحّحها له بعد الظهيرة. لديه، الآن، واجبات ليوم غد.

أضفنا تدريجيّاً الإملاء والكتابة. وبما أنّه لم يعرف ماذا يكتب، واعتقد بأنّه ليس لديه ما يرويه، طلبتُ إليه أن يكتب عن مواضيع لها علاقة بحياته وعمله. وهكذا روى لي، كتابةً، كيف يجري الاعتناء بقصب السكّر في الأورغواي، وكيف يُقطَع في كوبا، وهما تقنيتان مختلفتان؛ ثمّ كيف يجري بناء كوخٍ من اللِّبْن؛ وكيف يُصنَع سقفٌ من القشّ.

وهذه أمورٌ أجهلها، ولذا طلبتُ منه، بعد تصحيحها، شروحاً وتفاصيل أخرى. فتعلّمتُ، وتعلّمَ. فأكملنا بعضنا.

استخدمتُ قلمَ رصاصٍ أحمرَ لتصحيح كتابات غونزاليس. بعد فترةٍ، قال لي إنّه يغضب كثيراً لرؤية تلك العلامات التي أضعها على دفتره النظيف والمرتّب جدّاً. علاوة على أنّ كلّ علامة تعني أن عليه إعادة كتابة الكلمة لعشر مرّات، لكي يتذكّرها، مثلما جرى تعليمنا في المدرسة. لم يرق له منهجي في التعليم، ولكن بما أننا أناسٌ جدّيون، وقد عقدنا العزم على ذلك، قام بتطبيقه.

أعتقد أنّ ثمّة شيئاً ما ساعدنا على أن نتفاهم: ما رويته له عن عائلتي، وأهلي الذين تربّوا في الريف. بطريقةٍ ما، جُبلنا هو وأنا من الطينةِ ذاتها، جئنا من العدم. العدم في بلادي هو عدم امتلاك اسم، وعمٍّ، وأصدقاء معروفين من الجميع، وعدم امتلاك أيّ صلة بالسلطة. جئنا من لا مكانٍ ونريد أن نكون محتَرَمين. كيف نفرض احترامنا؟ حسناً، من خلال شيءٍ ما، شيء يمكننا القيام به أن نبقى صامدين. كأن ندرس اللغة الإسبانية في السجن، مثلاً.

7

ذات يوم، بعد الغداء، وقبل درس اللغة الإسبانية، انفتح باب زنزانتي وقيل لي بأنّه لديّ زيارة. هذا أمرٌ مريب. اليوم هو الإثنين، وكانت زيارتي يوم الخميس الفائت، هذا اليوم ليس يومي. كما أنّه ليس يوم زيارة المحامين، علاوة على واقع أنه ليس لدي محام، لأنّ محاميَّ قد اعتُقِلَ بدوره وهو مسجون في الطابق الرابع. وقد عيّنت لي المحكمة العسكرية العليا ممثّلاً، كولونيلاً لا أعرفه، يلعب دور المدافع عن عدّة مئات من السجناء. وهذا السّيد لا يأتي أبداً لرؤية أيّ سجين. وبالتالي هذه ليست زيارة من عائلتي ولا من محاميَّ.

هذه الذريعة، القول لمعتقلٍ بأنّ لديه زيارة، يستخدمها العسكر حينما يريدون إخراجه من السجن واقتياده مرّة أخرى إلى التعذيب. لا يبالون بمرور سنوات عديدة على توقيفه. وإن ارتأوا في ذلك ضرورةً، يقتادونه إلى ثُكنةٍ لاستجوابٍ جديدٍ.

أثناء الزيارة الماضية، رأيتُ أمّي. ولأنّه ليس لدينا سوى نصف ساعة، فلا حاجة لأن يقطع أبي مسافة خمسين كيلومتراً ليكون معي خلال هذا الوقت الزهيد. فكانت أمّي تأتي في معظم الأحيان بمفردها. يا لها من صدفة: لقد كانت زيارتي السابقة في 27 أيار، أي بعد توقيفي بأربع سنوات تماماً.

بارتيابٍ شديد، خرجتُ من زنزانتي. نقلني جندِيان إلى ردهة الانتظار، التي لم يكن فيها أحدٌ عندما دخلت إليها. مقعدان من الاسمنت، خاليان، والهواتف في أماكنها قرب الزجاج الذي يفصل بين السجين والزائرين.

بعد دقائق من الانتظار، دخل أبي. كانت تكفيني رؤية وجهه لأعرف ما حدث. كانت عيناه محمرّتين. أخبرني أنّ أمّي قد ماتت. أضاف أنّه في الواقع هو من كان عليه أن يموت، وأنّه لم يعد يريد العيش بدونها.

8

لم أعرف ماذا أقول له. لم أعرف إلى أين ألجأ. ماتت أمّي في الخامسة والأربعين من عمرها. سيتوقّف عمرها إلى الأبد عند الخامسة والأربعين. وسيأتي اليوم الذي سيكون عمري فيه أطول من عمرها، حيث سأكون أكبر سنّاً منها. ستُدفَن ولن أكون حاضراً، لن أتمكّن من مرافقة أبي، ولن أتمكّن من رؤية أختي التي ستأتي من بوينس آيرس لحضور مراسم الدفن. لن أستطيع فعل أيّ شيء. كلُّ شيءٍ هائلٌ جدّاً بحيث يفوق قدرتي على الاستيعاب. كانت الأسئلة عديدة وكبيرة جدّاً بحيث لم أعرف من أين أبدأ للإجابة عليها.

بعد خمس دقائق، ودّعتُ أبي محتضناً إياه بين ذراعيّ.

اقْتدتُ إلى زنزانتي ورويتُ لغونزاليس القليل الذي أعرفه عمّا حدث.

في الحال، ودون أن أدري كيف، تخيّلتُ خطّةً: لم

يحدث أيّ شيء. طبعاً، العسكريون على علمٍ بموت أمّي. إذا أظهرتُ ألمي وضعفي، سيستغلّون ذلكً في محاولة تحطيم إرادتي. وبالتالي سأتصرّف وكأنّه لم يَجِدّ جديدٌ، هنا.

قلتُ لغونزاليس إنّه علينا أن نتابع درس اليوم. تمنّى عليّ أن لا نفعل، وأن نتّفق على يوم عطلة. ألححتُ على ضرورة استمرار الدرس، لأنّ ذلك ما عقدنا العزم عليه.

كما أنّ لديّ حجّة أخرى، سقتها له: لا بدّ أنّ رغبة أمّي هي أن أستمرّ، دون استسلامٍ للإحباط. وجدته غير راضٍ، ولكنّه استجاب إرضاءً لي.

9

هبط الليل. وصل الحساء. رُفع النداء. يمكننا أن ننام. انطويتُ على نفسي واستغرقتُ في الليل مديراً وجهي إلى الحائط، تدثّرتُ، وأردت أن أغرق في الليل لأتمكّن من التفكير في أمّي.

لن أراها أبداً. حينما سأخرج من السجن، لن تكون موجودة، لن تكون أبداً، لن يعود بإمكاني أن أشاجرها ولا أن أضاحكها. من المستحيل أن أستبقي هذه الفكرة في جمجمتي. استعدتُ ذكرياتي. سيعتصرني الكمد لسنوات طويلة وأنا أرتّب ذكريات هذه المرأة وصورها.

من بين كلّ تلك الذكريات، هناك ذكرى واحدة، أثيرة لديّ، وقد روت لي حكايتها ذات مرّة. كانت أمّي طفلة، تعيش في الريف، وسط عائلة من خمسة إخوة وأخوات. وللذهاب إلى المدرسة، كان عليها أن تقطع عدّة كيلومترات سيراً على الأقدام. كان لأمّي زوج من الأحذية المفتوحة

(الصنادل) للذهاب بهما إلى المدرسة، لم يكن لها الحقّ في أن تنتعلهما سوى للذهاب إلى المدرسة. كان الوقت شتاءً، والمطر يهطل. جرت أمّي حافية القدمين عبر الحقول. كان صندلاها ملفوفين ومرتّبين جيّداً في حقيبتها المدرسية. وصلت إلى المدرسة، انتظرت إلى أن تنشف قدماها، ثم انتعلت صندلَيْها. في نهاية الدرس، جرت من جديد عبر الحقول، تحت المطر، وأعرف أنّ حذاءيها كانا في حقيبتها.

10

بعد بضعة أشهر، وصلنا إلى نهاية كتاب اللغة الإسبانية. أنجزنا الدرس الأخير في الوقت المعتاد للدرس. صحّحنا التمرين الأخير، بهدوء، كما ينبغي أن نفعل، وكما كنا نفعل دائماً. إنّنا جدّيون. وبالتالي، الدرس جدّي.

حينما أجاب التلميذ عن السؤال الأخير، هنّأته بشكل احتفالي. لقد نجح بأعلى الدرجات، ولذلك، قرّرنا أن نقيم له حفلة في المدرسة. لم يعد لدينا ما نفعله في الأمسيات.

بعد الآن، سيكون عليه استخدام المعارف التي اكتسبها، والإكثار من القراءة، وكتابة الرسائل إلى ابنته، وعدم الكفّ عن الدراسة أبداً.

تصافحنا.

لم يكن كلّ ذلك سوى مُزحة، ولكننا شعرنا، نحن الاثنين، بأنّنا كسبنا شيئاً ما على حساب السجن والعزلة والتوحّش التي أُريدَ فرضها علينا. ها نحن ننتصر ولو لبعض الوقت.

11

منذ موت أمّي، ساءت حال أبي كثيراً، وأفرط في الشراب. لم يعد يأتي لرؤيتي، ويرسل نيابةً عنه عمّتي. أمّا أختي فكانت في بوينس آيرس. بعد بضعة أشهر أخذتْهُ إلى بيتها.

ذات يوم، قرّر أبي العودة. في مونتِڤيديو، ارتدى بزّته وربطة عنقه، وراح يثرثر مع جيراننا في حارتنا القديمة، وقد بدا فرحاً، وهو يتحدّث. أصبح كلّ شيءٍ على أحسن حال.

في اليوم التالي، دُعيتُ إلى صالة الانتظار. والغريب أنّه لم يكن يوم زيارتي.

ذهبتُ إلى الصالة، وأُخْبرتُ بأنّ أبي قد انتحر، بعد أن ودّع، عشيّة الثالث عشر من كانون الأوّل 1978، بيته وجيرانه.

كنتُ أعلم بأنّه سيفعل ذلك. كثيراً ما ردّد عليّ ذلك: «لم أعد أريد العيش من دون أمّك.»

لم أكنّ أشكّ في أنّه سينتحر، ما كنت أتساءل حوله هو متى وأين سيكون ذلك.

عندما أخبروني، قرّرت أن أبدو وكأنّ شيئاً لم يحدث. أبديتُ صلابةً كصلابة الحَجَر. وسوف أبقى كذلك لسنوات.

في عتمة الليل، أدرتُ وجهي إلى الحائط، وتتالى شريط الذكريات، طوال الليل.

ولكن لم يكن هنالك سوى ذلك الألم الدفين، والغضب الشديد الذي انتابني. أكره أبي، أكرهه لأنّه انتحر، لأنّه لم يفكّر فيَّ وفي حاجتي إليه.

بعد ذلك بشهور، وبسنوات، أدركتُ أنّ انتحاره كان شهادة حبّ لأمّي. كان عالمه قد انهار من دون المرأة التي عاش معها ثمانية وعشرين عاماً، إضافة إلى أن ابنه سجين وابنته في بوينس آيرس. كانت كآبة العيش في بلدٍ له فيه ابنٌ في إصلاحية ليبيرتارد تعتصره ألماً. لم يعد يطيق ذلك، فاختار الموت. ربّما كانت تلك شجاعته أو لحظته الخاصّة، وربّما الأهمّ في حياته، حينما اختار اليوم والمكان والطريقة التي سيموت بها. لم يكن موتاً وديعاً هادئاً بلا ألمٍ. بل موتاً مروّعاً أليماً. كان في الرابعة والخمسين من عمره.

في عام 1985، حينما خرجتُ من السجن، ذهبتُ وشاهدت المكان الذي انتحر فيه والدي. ليس بعد خروجي

مباشرةً، وإنّما ذات يوم كنتُ فيه واثقاً من نفسي وقويّاً. ذهبت إلى ذلك المكانِ، وتفحّصتُ كلّ شيء، وحاولت تخيّل المشهد. وأدركتُ العزلة الهائلة التي أحاطت بذاك الرجل في ذلك اليوم. وعبّرتُ عن كامل محبّتي وعرفاني له لجهده في سبيل تربيتنا. كان رجلاً مميّزاً. اعتنى بي وحماني. لقد قام بواجبه كأب. بمرور السنوات، تبيّن لي أنّ لا أهمية لقيامه بواجباته.

12

حينما نجحتُ في ترتيب ذكريات أبي، احتفظت بواحدة منها. كنتُ في الرابعة من عمري. وكان أبي يملك عربةً وفرساً سمّاها الأميرة. كان يستيقظ في الواحدة فجراً ويذهب إلى السوق لشراء فاكهةٍ وخضارٍ. ويعود حوالي السابعة صباحاً، يتناول فنجاناً من القهوة بالقشدة ويخرج ليبيع بضاعته حتى المساء.

في تلك الذكرى، كان الفصل شتاءً والصباحُ باكراً. استيقظتُ، لسببٍ مجهول، باكراً، ووقفت مع أمّي وجدّتي بباب البيت. انتظرنا أبي. فجأةً، لاحت العربة على الطريق، تسير بطيئة للغاية. حينما بلغتنا، تميّزتُ أبي. كان يلتحف بأكياس الخيش المغطاة بالندى. كان رجلاً شابّاً، في الثلاثين من عمره، وكان على أمّي وجدّتي أن تساعداه في النزول لأنّه قد تخدّر تماماً من شدّة البرد.

دخل إلى المطبخ. تناول قهوته بالقشدةِ وانصرف بعربته، إلى العمل.

ليست هذه ذكرى جميلة. إنّها، ببساطة، الأثيرة عندي من بين ذكرياتي عنه.

13

الآن، من دون والدَيّ، أبدأ الحياة في عالمٍ آخر، عالم ليس لي فيه أيّ شخص يسندني. الآن، من دون والدَيّ، أبدو وحيداً في هذا الكوكب. كلّ مسؤولية حياتي تخصّني وحدي، وليس سواي. حتى الآن، كان يمكن الاعتماد عليهما، ولو معنوياً. حتى الآن، كان يمكن رمي الأخطاء عليهما. بعد الآن، لا يمكنني الاتّكال عليهما ولا تحميلهما أخطائي. الآن، حياتي ملكٌ لي تماماً، في السجن أو في أيّ مكانٍ آخر، أنا مسؤول عن أعمالي، عن كلّ أعمالي. ولكنني سوف أشعر على الدوام بواجب الوفاء للقيم البسيطة التي رسّخاها في ذهني، لعزّة نفسهما الأصيلة التي يتّسم بها أهل العمل.

بعد سبع سنوات، لن أكون في الأورغواي. إذاً، حتى هذا اليوم، أينما وجدتُ نفسي، هناك حيث لا أحد يعرفني، سأشعر كما لو أنني لم أعد ملزماً بتقديم الحساب عن

أعمالي لأحد سواي، عليّ أن أبقى وفيّاً لذكرى تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تجري حافية القدمين تحت المطر وسط الحقول، لذلك الرجل الملتحف بأكياس القنّب، مخدّراً بالبرد فوق عربةٍ. كما أتمنّى لو أنّ هنالك مكاناً من هذا الكوكب يضمُّ رُفات والدَيّ، مكاناً بوسعي الذهاب إليه، لأكلّمهما، وأخبرهما بأنّ ابنهما لم يعد سجيناً، وأشكرهما على الحماية والرعاية التي أولياني إيّاها، في طفولتي. أخبرهما أنّ ابنهما قد أُطلِق من السجن وهو يعيش حياته الآن. أقول لهما بأنّهما، وهما اللذان لم يدرسا سوى المرحلة الابتدائية في الريف، قد وهبا الحياة لابنٍ نذر نفسه للكتب. أو لا أقول لهما أيّ شيء. بل أقول لنفسي: إذا كنتَ لم تقم بواجب دفن والدَيك، فقد أدّيت واجب الذهاب إلى قبريهما على الأقلّ مرّة واحدة في حياتك.

ولكنني لم أذهب قط إلى قبريهما، بل لا أدري إن كان لهما قبرٌ.

14

في قسم شرطة مونتِڤيديو، 14 آذار 1985. كانت الساعة السادسة أو السابعة مساءً. انتظار مرح ومتوتّر. ها قد مضى أكثر من أربع وعشرين ساعة على وجودنا هنا. كنّا ثلاثين رجلاً تقريباً، في الطابق الرابع. في الطرف الآخر، هناك مجموعة من النساء في حالة الانتظار ذاتها. لقد أمضينا جميعاً سنوات طوال في السجن، عشر سنوات، اثنتي عشرة سنة. وقد بلغ مجموع سنوات اعتقال أحد زملائنا ست عشرة سنة.

نعلم بأنّه سيُطلَق سراحنا هذا المساء، ولكننا لا ندري في أيّة ساعة. وهذا لا يهمّنا كثيراً. لقد اعتدنا الانتظار، انتظار أيّ شيء. لطالما عشنا حالة الانتظار، ولم يعد ذلك مشكلتنا. إنّها مشكلتهم هم، الذين ينتظرون الأوامر لإطلاق سراحنا.

ورغم أنّ الطابق الرابع يقع وسط مجموعة بيوتٍ،

ويكاد يكون معزولاً، سمعنا الصيحات المتصاعدة من الشارع: أهلٌ وأصدقاء قدموا في العشيّة يغنّون ويحيّون. كانت الريح تنقل إلينا مقتطفاتٍ من أغاني أولئك الناس الذين جعلونا نعلم بانتظارهم. أشاع صدى تلك الأصوات الدفء في قلوبنا. كان ذلك جديراً بمشقّة الانتظار الطويل جدّاً.

بعد ظهيرة أمس، أُخْرِجْنا من إصلاحية ليبيرتارد. سِرْنا في رتلٍ ما يقارب ثلاثمائة مترٍ إلى أن بلغنا البوابة، دون أن تكون أيادينا، للمرّة الأولى، خلف ظهورنا، ودون أن نكون مرغمين على السير صامتين، ننظر بخطٍ مستقيمٍ أمامنا. رُكِّبْنا في حافلة.

وجدنا أنفسنا على الطريق، كان هنالك عددٌ من سيارات الجيب وعدّة شاحنات ملأى بالجنود. وطوال الرحلة نحو مونتِڤيديو، كانت طائرة مروحية تحلّق فوقنا. خلال الأيام الأخيرة، كان دائماً هناك أناسٌ أمام باب الإصلاحية، من أهلٍ وأصدقاء وصحافيين. البارحة، كانت هنالك سيارة واحدة مع الأهل. حينما شاهدونا نخرج، تعرّفوا إلينا. انطلقت السيارة، واندفعت على الطريق، محاولةً تجاوز الموكب. لدى الدخول إلى مونتِڤيديو، شاهدناها وقد اصطدمت بزاوية شارعٍ.

غالباً ما قطعتُ المسافة من الإصلاحية إلى مونتِڤيديو

خلال هذه السنوات. ولكن لم أكن قد شاهدت المنظر الخارجي، إذ كنتُ، في كلٍّ مرّة، حبيس الشاحنة. الآن، بإمكاننا رؤية التغيّرات التي طرأت على مداخل المدينة، والتي لم نكن نعرفها. فجأةً، تراءى لي بأننا كنّا ندخل حارتي، تراجا. سلكت الحافلة جادة كارلوس-ماريا-راميريز. لقد مررنا بالأمكنة والشوارع التي أعرفها جيّداً، قريباً جدّاً من البيت الذي تربّيتُ فيه، الذي عشتُ فيه حتى سنّ العشرين، على بعد بضعة أمتارٍ من ذاك المكان حيث تعيش الآن أختي. هل كانت أختي في بيتها، دون أن تدري أنّني أمرّ قريباً جدّاً منها؟

15

في الطابق الرابع من قسم الشرطة، كان ثمّة أشياء كثيرة ليقولها المرء لنفسه، وفي الوقت ذاته لا شيء ليقال. ينبغي إطلاقنا قبل منتصف الليل. هذا أمرٌ محسوم، وقد أُقِرَّ القانون الذي ينظّم ذلك. إذاً سيكون هذا بداية الحرية. الآن نحن في منطقة محايدة، ولكننا لا نزال سجناء.

تم إنزالنا في مجموعاتٍ صغيرة. سرتُ بصعوبة. فقد قرّر أحدهم تنظيم المباراة الأخيرة لكرة القدم في إصلاحية ليبيرتارد قبل إطلاق سراحنا. لقد لعبت باستمرار كرة القدم وانخرطت فيها طوال سنوات سجني، وتعرّضت للكسور وجُبّرت في الجِبْس مراتٍ عديدة. لم أكن أريد المشاركة في تلك المباراة، حرصاً على ألاّ أُصاب قبل خروجي. ولكن كانت تلك اللعبة بمثابة واجب الوداع. وأُصبتُ فيها بالتواءٍ في مفاصل الكاحل.

16

دخلنا في حُجرةٍ بلا نوافذ. وقف، خلف مكتبٍ مغطّى بالأوراق، أربعة أو خمسة رجالٍ بالزي المدني.

من يكون هؤلاء؟ أهم عسكرٌ، رجال شرطة؟

كان الرجال جدّيين ومتوترين. كانوا ودودين، ولكن العصبية بادية عليهم. أنا، كنتُ وقوراً وجافّاً، مثلما ينبغي. ومزعجاً بعض الشيء، كدأبي دائماً، كما اعتدنا أن نكون مع جلاّد.

سألني أحدهم عن اسمي. وتفحّص آخَرُ الأوراق، ووجد أوراقي.

«وقّع هنا، من فضلك.»

من فضلك. لم نألف هذا اللطف في الكلام.

في اللحظة التي وقّعتُ فيها أدركتُ أنّها بداية الحرية. أدركتُ حينها بأنّ الرجال الواقفين خلف المكتب ليسوا

عساكر ولا رجال شرطة. إنّهم موظّفو السلطة القضائية الذين جاؤوا يهبوننا الحرية. عبثاً كنتُ جافّاً ومزعجاً.

حينما وقّعت، مدّ أحدهم يده إليّ قائلاً: «تهانيّ لك.»

وفعل الآخرون الشيء ذاته. لم أعرف كيف أقول لهم لو أنّني كنتُ أدري أنّهم ليسوا عساكر ولا رجال شرطة لما كنتُ قد أسأت الأدب إلى هذا الحدّ. شكرتهم. وقادنا الحرّاس إلى الطابق الرابع.

17

استمرّ الانتظار. ونزل سجناء آخرون ليوقّعوا على حريتهم. بعد ساعتين أو ثلاث، نحو الساعة العاشرة والنصف مساءً، بدأت الأمور تتحرّك. أُنزِلنا في مجموعة من ثمانية أو عشرة أشخاص إلى القبو. هناك، تحدّث إلينا ضابط شرطة شابّ.

سوف نغادر بهذه الشاحنة المغلقة ذات النوافذ الصغيرة. شرح بأنّه سيضع شرطيّاً، أعزل، في الحافلة، ليمنع فتح البوابة الخارجية من قبل أحدٍ. ثمّة الكثير من الناس في الشوارع، وربّما يكون خطراً علينا إن نجحوا في إخراجنا من العربة.

من الواضح أنّه تلقى أمراً بذلك. لا بدّ من قيادة كلّ سجين إلى المكان الذي حدّده، إلى العنوان الذي أعطاه، ويجب أن يصل إليه سليماً معافى. ما قاله الضابط لم يعنِنا أبداً. كان عصبيّاً. فليفعل ما يشاء. فليضع شرطياً مسلّحاً

أو أعزلَ أو عارياً تماماً أو كما يشاء. هذه مشكلته. نحن الذين سنرحل في هذه العربة سجناء قدماء، اعتدنا على إظهار عدم الاكتراث لما يفعله هؤلاء الناس، للخسّة التي يبدونها. في تلك اللحظة، كنّا أقوى منه.

الناس الذين في الشارع هم من الأهل والأصدقاء والأشخاص الذين ينتظروننا، ولن يسيئوا إلينا. ولكن الصحيح أيضاً هو أنّني لن أعرف ما أفعله لو أنّني تُركتُ أمام المركز، وسط الزحام الصاخب.

جلسنا في العربة، وطالت إجراءات الخروج. وقد اعتدنا ذلك أيضاً. لم نعتد فحسب، بل سيكون الأمر غريباً إن لم يكن كذلك. يجب الانتظار دائماً. في النهاية، السجن حالة انتظارٍ. انتظار الوجبات والزيارات، والذهاب إلى المغاسل، والخروج إلى الباحة، وطرود العائلة، وانتظار الحريّة.

في السجن، حينما يقبل الليل يقول سجينٌ: «نقص يوم.» ليردّ عليه آخر: «زاد يوم.»

يتوقّف الأمر على الطريقة التي تُرى بها الأمور. إذا نقص يومٌ من المدّة التي تفصلنا عن الحرية فهذا لأننا قضينا يوماً زائداً في السجن.

18

كان الجميع، في السرداب، في العربة، منكمشين على ذاتهم أشدّ الانكماش، كلٌّ يفكّر في أموره، مثلما أفكّر في أموري. لا أحد يتكلّم، سوى ليتفوّه بتفاهة، مزحة آنيّة، فالجميع في توتّرٍ وعصبية.

فجأةً، سار كلّ شيء. أعطى ضابط الشرطة الأوامر الأخيرة، صعد وجلس إلى جانب السائق. توجّهت مركبةٌ نحو المنحدر الذي يؤدّي إلى شارع سان جوزيه. سُمِعَت صيحات الناس. نعم الآن، المسألة جدّيّة. تحرّكت العربة إلى الخلف، وسلكت ممرّ الخروج من السرداب. صعدت، فأصبحنا على الرصيف. سُمِعَت الصيحات. كانت صيحة مدوية. سارت العربة على الطريق المعبّدة. حطّم الناس طوق الشرطة وارتموا على العربة، وانهالوا عليها. وتردّد صدى ذلك في الداخل.

استدارت العربة نحو اليمين في شارع سان جوزيه،

وانطلقت بأقصى سرعة. أخيراً، أصبحنا في الخارج. وسنترك أوّل زملاء السجن في بيته، وسط ذويه.

جابت العربة المدينة. وصلنا إلى البيت الأوّل. ثمّة نورٌ في الشارع. انفتح الباب الخلفي. سينزل رودولفو. تصافحنا أنا وإيّاه كما لو أنّنا سنلتقي بعد لحظةٍ. نجحتُ في استشفاف الشارع والناس. ولكن اختلطت عليّ التفاصيل.

19

صالت العربة وجالت في المدينة. لم أدرِ أين نحن، ولم أنشغل كثيراً بمعرفة ذلك. في مكان ما من الضواحي. توقّفت العربة في شارعٍ شاحب الضوء، بيوته واطئة وسكّانها فقراء. ثمّة مجموعة من الناس في ركنٍ من الشارع. نزل زميلٌ آخر. فجأةً علا صُراخ الناس: «قَتَلة، قَتَلة!»

كانوا يوجّهون صراخهم إلى رجال الشرطة. أما نحن، فبقينا لامبالين بذلك. نفّذ رجال الشرطة أمراً أعجبنا. ربّما من المبالغة اعتبارهم قتلة.

لم أعرف كم عددنا في العربة ولا كم عدد الذين خرجوا هذا المساء. أمرٌ غريب، لم تراودني، أنا الذي أحصي كلّ ما أراه، فكرة إحصاء عددنا. أبداً لن أعرف كم كنّا في هذه العربة، ولم أرغب في معرفة ذلك.

فجأةً، أحسستُ بالغربة التي يشعرها المرء حينما يكون

حرّاً. لأنّه حينما أكون بخير في عربةٍ شرطة، مع شرطيٍّ بهراوته بالباب، لا أعود سجيناً. يمكنني فعل ما أشاء بحياتي. هذا شيءٌ يحلو سماعه ولكنّه مرعب. والآن؟ ما الذي سيحصل الآن؟ يستحيل طرح سؤال على أحدٍ هنا، بين هؤلاء المجانين المنكمشين على فكرة حريّتهم.

لو أنني أُنزلتُ في أيّ مكان من المدينة، لما عرفت ما أفعله. ليس لدي مال، ولن يكون بوسعي شرح مَنْ أكون ومن أين جئت. هذا ما أخافني بعض الشيء. أردتُ الوصول إلى مكانٍ معلوم، بين أناسٍ معروفين.

إلى الأمس، كنتُ أعتبر نفسي شخصاً قويّاً، جسدياً ومعنويّاً. الآن، أشعر بنفسي ضعيفاً. لا أدري ما سأفعله وسط المجتمع. لا عمل لدي، ولا مسكن، ولا أوراق ثبوتية. أصدقائي هم هؤلاء الناس الذين كانوا مسجونين معي. وحالهم كحالي.

أدركت أنه قد بدأ الآن ما هو أسوأ. حينما سأصل، سيكون عليّ اقتناء أوراق ثبوتية، والعثور على عملٍ. كانت خطّتي غير المباشرة هي: الوصول، وإلقاء تحيّة الصباح، والبدء في الحال. فلا وقت لديّ لأضيّعه.

طوال سنوات، في السجن، كانت الحرية سهلٌ مترامي الأطراف، أبيض، بضياءٍ شفقيٍّ. كنتُ أجري عبر ذلك السهل، وكان بوسعي الذهاب في الاتجاه الذي أُريد، نحو

الأفق. لم يكن ذلك السهل مقفراً، بل مثيراً. كان يوجد فيه كلّ شيء. لم يكن الوصول يتعلّق إلاّ بي، بمصلحتي، برغبتي في التقدّم.

الآن، بدأت الحرية. ولم يعد الأمر هيّناً. إنّها عربةٌ تتقدّم في عتمة الليل عبر المدينة، في أحياء وشوارع لا أنجح في تحديدها، وربّما لا أعرفها. لم يعد الأمر مثيراً، بل مقلقاً، إنّه تحدّ.

في السجن، كان كلُّ شيءٍ أكثر بساطةٍ: ليس هنالك شيءٌ يمكن فعله. إذا وصلت الوجبة في موعدها، نأكلها في موعدها. إذا وصلت متأخّرةً نأكلها متأخّراً. وإذا لم تصل في موعدها ولا متأخّراً، لا نأكل. هذا ما تبقّى لنا من حرية، بقيّة لا تساوي شيئاً. يقرّر آخرون عنّي. أمّا أنا فقد قرّرت أنّ ما يقرّرونه سيّان عندي. بالنسبة للسجين، العيش هو مقاومة ليوم إضافي، ولليلة إضافية. بالنسبة للمواطن الحرّ، ما هو العيش، كيف يكون العيشُ؟

في العربة، في الوقت ذاته، شعرتُ بحرية لامتناهية. يمكنني اختيار الطريق الذي أريد، وهذا أمرٌ عظيمٌ وهائل، أكبر من أيّ حلم. كلّ الدروب مفتوحة أمامي، كديمومة الحياة. ولكن هذا يشلّني. أيّ دربٍ سأختار؟ وأنا أدري بأنّه باختيار واحدٍ منها سأخسر كلّ الدروب الأخرى.

الحريّة هكذا، هي تجريد، شيءٌ ما غير معاش. في

لحظة سيكون عليّ أن أبدأ باتّخاذ القرار. لقد سبق وقرّرت، ولا يمكنني خداع نفسي. لم يراود ذهني أنّ أوّل ما سيكون عليَّ فعله هو أن أجلس وأستريح. أبداً. ما يناسبني، هو أن أعمل، وفي الحال. شعرتُ أنّ هذه الرحلة نحو الحريّة هي مضيعةٌ للوقت. كان عليَّ منذ البدء أن أكون واقعياً، وأن أفعل شيئاً ما.

في وقت ما، شعرتُ بأنني في أصعب لحظةٍ في حياتي. ولأتخلّص منها، تملّكت غريزة الحيوان في الأدغال، وهذا ما اعتاد عليه السجين: أن يرى دون أن ينظر، وأن يسمع دون أن يصغي، وأن يعرف دون تبجّح.

20

في 14 آذار 1985، نلتُ الحريّة. في 11 كانون الأوّل 1985، هبطتُ في ستوكهولم.

اليوم هو 24 كانون الأوّل 1985، وأنا في بيت نينا، أورغوانيّة كانت قد سُجِنَت، ومن ثمّ نُفيَتْ منذ عامين. هذه وجبة الميلاد الأولى لي منذ 1971. ثمّةَ عشرة أو اثنا عشر شخصاً حول المائدة، بنات نينا وجوانجو، وآخرون لا أتذكّرهم، وأورغوانيّة عُرِّفتُ بها للتوّ.

سار العشاء كما يُتوقّع في هذا النمط من اللقاءات، مع إضافة شيءٍ خاصّ: نخبٌ لجوانجو الذي التقى ببناته بعد خمسة عشر عاماً، ونخبٌ لي حيث أُطْلِقَ سراحي ولا أزال بعيداً عن عائلتي. علينا أيضاً، جوانجو وأنا، أن نعتاد الحياة في مجتمعٍ، في بلدٍ لا نعرفه، حيث نأكل فيه أشياء لم نكن قد ذُقناها من قبل، مع مشهد ثلجيٍّ يلوح من وراء النافذة.

أصبحت الاحتفالات الخاصّة بذلك اليوم وراءنا، مثلما هي احتفالات اللقاءات والفرح بالنسبة للسجناء الذين أُطلِقَ سراحهم، كنا لا نزال حول المائدة، وبدأت النقاشات تنسلّ، فتحدّثت كلّ مجموعة من جانبها، ورُويت حكاياتٌ وفكاهات.

فجأةً، أخذت المرأة الأورغوانية، التي كانت قبالتي ولا أعرفها، تضحك وتقهقه، كانت ضحكتها دويّاً ملأ البيت بأكمله. نظرتُ إليها. نظرتُ إليها وقلتُ في نفسي إنّ ما أفكّر فيه مستحيل، لا بدّ أنّ الأمرَ خطأٌ من أخطاء ذاكرتي.

لا أعرف هذه المرأة، ولا أتذكّر حتى الاسم الذي قُدِّمَت به إليّ قبل ساعة. لأنني لا أعرفها، ولا أعرف إن كان من المناسب أن أطرح عليها السؤال الذي يجول في خاطري. إن أجابتني بالنفي، فلن أُحسِن بعدها تفسير موقفي بأنّ ظننتها امرأة أخرى. وإن أجابتني بالإيجاب، فسوف أخالف ما يبدو لي أنّها أبسط أصول اللباقة، بنقل ذكريات غير مستحبّة في هذا اللقاء.

لم أستطع الامتناع عن النظر إلى تلك المرأة. بدأت تداري ضحكتها. كان الوضع عسيراً. تشكّل سؤالي في ذهني، وكان لا بدّ من توطئةٍ، من تبريرٍ لكي لا تعتقد، في حال كان ردّها سلبياً، أنني أهذي. لحظةَ تفوّهتُ بالتبرير الذي يسبق السؤال، سمعتُ نفسي أقول:

«أَلَسْتِ المجنونة صاحبة الكلاب؟»

نظرت إليّ وصاحت:

«نعم، نعم! أنا المجنونة صاحبة الكلاب.»

إنّها النبرة نفسها لتلك الصرخة التي كانت تدويّ، قبل ثلاثة عشر عاماً، في قاعة التعذيب، وتصل إلى الزنازين، وتصدع جماجمنا.

«وكيف عرفتَ أنني المجنونة صاحبة الكلاب؟»

«لأنني كنتُ في زنازين الطابق العلوي.»

بهذا الصوت، يستحيل أن يمرّ سؤالي، وجوابه خفيةً، بيننا نحن الاثنين.

شرعت أولغا تروي بصوتٍ مرتفعٍ ما كان يحصل. حينما كان العساكر يستجوبونها، علاوة على تعذيبها، كانوا يهدّدونها بقتل كلابها. وكانت، كسجينة ساذجة، تثير فضيحة كبيرة لأمرٍ تافهٍ، بغيةَ ألا تُستَجْوَبَ حول الأمر الأهمّ. وإذا كانت لا تريد أن يقتلوا كلابها، فهي أيضاً لا تريد أن تُستجوَب عن أيِّ شيء كان. كانت تأمل في أن توقفهم عند هذه المرحلة، بحيث يكتفون بفكرة أنّ الموت المحتَمَل لكلابها سيثير هياجها. إذاً، إنّها مجنونة.

في كلّ مرّة كانت أولغا تُقتادُ إلى قاعة التعذيب، كنّا نسمعها تصرخ:

«ليس الكلاب، ليس الكلاب!»

كانت ذاكرتي السمعية قد اختزنت تلك الصرخة وذلك الصوت الضّار بدقّة أتاحت لي أن أستعيده بعد كلٍّ تلك السنين.

21

بعد ظهيرة الأوّل من تشرين الثاني، تنزّهتُ مع آنّا وسط ستوكهولم، في سوديرمالم، الجزيرة الأجمل في العاصمة السويدية، والتي ستصبح مكان إقامتي طوال سنوات.

كانت هنالك مقبرة بروتستانتية قديمة جدّاً، فيها مقاعد للجلوس بظلال الأشجار في الصيف، ودروب يسلكها الناس للعودة إلى بيوتهم، ويسلكها الأطفال بدراجاتهم الهوائية.

في تلك الليلة الباكرة، لم يكن برد الخريف شديداً مثلما هو في العادة هنا. لقد حدّثوني عن عادةٍ لهذه البلاد. في الأوّل من تشرين الثاني، يذهب الناس إلى المقابر ويوقدون شمعةً على قبور موتاهم أو أحبّتهم. وهذا دليل رحمةٍ وحضارة وثقافة.

عندما وصلنا إلى سياج المقبرة، قلت لآنّا إنني أريد

الدخول إليها. كانت مقبرة صغيرة، أشبه بمجموعة من البيوت، تجاورها كنيسة.

دخلنا إليها وكأننا ندخل حديقة. تُشاهَد في الظلّ شموعٌ مضاءة على الأرض والقبور. وتُشاهد أطياف الناس وهي تتحرّك في صمت. مشينا في المقبرة الصغيرة. وحدّثتني آنّا عن تلك العادة في بلادها. وأنا إلى جانبها، كنتُ أُصغي إليها باحترام دون أن أتفوّه بشيء، ولكنني أعرف أنّني كنتُ على شيءٍ من فضول السائح. ربّما لأنّ موتاي ليسوا هنا، استطعتُ أن أُطلق العنان لفضولي.

أدركتُ أنّ موتاي ليسوا في أيِّ مكان. فاتني ذلك في الحال. لم أُعر قطّ اهتماماً لهذا النمط من المناسبات.

حينما بلغنا وسط المقبرة، وقفتُ أمام قبرٍ. كان أحدٌ ما قد وضع عليه شمعةً ورحل. كانت الشمعة تحترق وحدها. اقتربتُ أكثر. وآنّا خلفي. فجأةً، ودون أن أدرك ذلك، ودون أن أشاء ذلك، أجهشتُ بالبكاء.

بكيتُ بصمتٍ. وتركتُ الدموع تنهمر على وجهي. حاولتُ ألاّ تلمح آنّا دموعي، وبقيتُ أدير لها ظهري.

بدأتُ بالسير نحو المخرج، تتبعني آنّا دون أن تنبس ببنت شفة. غادرنا المقبرة، وسرتُ دون أن أتكلّم لدقائق لا أعرف كم عددها. أعرف أنّ آنّا رأتني أبكي. ما إن

استطعت، حتّى توقّفتُ للحظة ورجوتها أن تعذرني. مرّرت آنّا يدها على وجهي ومسحت دموعي.

شرحتُ لها بأنني ما كنتُ لأصدّق أن هذا قد يحدث لي. ها قد مرّت سنوات عشر على موت أمّي، وما يقارب ثمانٍ على موت أبي. لم أبكِ قط، ولم أشعر قطّ بالحاجة إلى ذلك.

حينها شعرتُ من جديد بأنّني أودّ لو أنّ هنالك مكاناً، مكاناً تكون فيه رفات والديّ، حيث يسعني الذهاب إليه لأقول لهما: سامحاني على هذا التأخير، لقد عانيتُ كثيراً حتى وصلتُ إليكما، ولكن ها أنا هنا. لقد خرجتُ من السجن.

22

نيسان 1995. مرّت ستّة أشهر على وجودي في مونتِڤيديو. قرّرت البحث عن والدَيّ. لا أعرف ما يجب فعله، ولا إلى مَنْ أتوجّه.

حضرتُ إلى مقبرة الشمال. يكاد يكون من المستحيل نيل ما أريد، ومع ذلك، طرحتُ قضيّتي على الموظّف الذي استقبلني. أعطيته اسمَي والدَيّ وتاريخ وفاتهما.

هل سيمكن تحديد مكانهما؟

لا يدري، ولكن سيرى ما يمكنه فعله.

فتح سجلاً ضخماً دوِّنَت فيه، بخط اليد، أسماء جميع المدفونين.

خلال بضع دقائق، حدّد مكانهما. يبدو أنّ الحظّ قد حالفني. إذ عادةً ما تذهب الرفات التي لا يُطالب بها أحد إلى محرقة الأموات. بالنسبة لوالدَيّ، حصل بعض التأخير

في ذلك، ولا يزال بإمكاننا العثور عليهما.

سألني إن كانت معي سيّارة.

نعم.

صعدنا في السيارة وذهبنا إلى آخر المقبرة الشاسعة. دخلنا إلى مستودعٍ فيه مئات الصناديق.

رغم تأكيد الموظّف، لم يكن يحدوني أملٌ كبير. العثور على شيءٍ هنا سيكون أمراً عسيراً. سلكتُ ممرّاً بين صناديق مكدّسة. بعد بضعة أمتار شاهدتُ صندوقاً عليه لوحة معدنية: ڤيريموندو ليسكانو، 13-XII-1978.

في هذا الصندوق توجد عظام أبي. في هذا الصندوق يوجد أبي. مكثتُ مسمّراً في مكاني. اقترب الموظّف منّي.

هل رأيتُ شيئاً ما؟

دللته على الصندوق.

حسنٌ، ها هو أحدهما.

انطلقنا في البحث عن الآخر. ذهبنا إلى مكانٍ مسوَّرٍ. تشير المعلومات إلى أنّ رفات أمّي هنا. يجب فتحه. وصل حفّارٌ. شرح له الموظّف ما يتعلّق به الأمر، وأيُّ صندوقٍ نبحث عنه.

قال الحفار بأنّ لديه الكثير من العمل. وطلب مدّة يومين ليفتح المكان.

سألني إن كان من الصعب عليّ أن أعود فيما بعد.

«كلاّ، أبداً. يمكنني أن أعود في أيّ وقت.»

«الجمعة؟»

«الجمعة، اتّفقنا.»

23

عُدتُ، يوم الجمعة التالي، إلى المقبرة. بحثتُ عن الموظّف الذي استقبلني. صعدنا في السيارة. ذهبنا إلى المكان الذي كنّا فيه قبل يومين. حينما وصلنا، شاهدنا الحفّار، واقترب منّا. كان ثمّة صندوقان عند أسفل جدار. الصندوق الذي وجدته، وآخر مكتوب عليه: رامونا فليتاس 31-V-1976.

انحنيتُ ومرّرت يدي على الصندوقين. وكان الرجلان صامتين.

بقيت مقرفصاً هكذا للحظةٍ، لا أدري في ماذا أفكّر.

«سامحاني، لقد ضيّعتُ وقتكما.»

«لا تشغل بالك بذلك.»

«والآن، ما المطلوب منّي؟»

سيُنقَلان إلى مكان آخر قد يظلاّ فيه عشرين عاماً.

لم يشاءا أن أحملهما، وفعلا ذلك بنفسيهما. وضعاهما في المقعد الخلفي للسيارة. أكرمتُ الحفّار.

انطلقنا، والموظّف إلى جانبي. وعلى المقعد الخلفي عظام والدَيّ. وهذا ما كنتُ أُردِّده في نفسي: والدايَ على المقعد الخلفي. أدركتُ أنني وصلتُ إلى مكانٍ ما. متأخّراً، ولكنني بلغته. هما لي الآن، هما معي، وأنا معهما.

ثمّ أودعتهما عند موظّفٍ آخر، وضعهما معاً في مكان واحد، إلى جانب بعضهما، في مشكاةٍ أخرى. دفعتُ إكراميات أخرى، وصعدتُ في السيارة.

خرجتُ من المقبرة منطلقاً بسرعةٍ فائقة، على مدى كيلومتراتٍ.

فجأةً، توقّفت. كنتُ خاوياً وصاحياً في آن. حتى وإن كنتُ أعلم بأنّ الكاتب ينزع إلى تبرير كلّ شيء، وإلى عَقْلَنَة كلّ شيء، فبوسعي أن أصف بدقّة شعوري في تلك اللحظة. لقد قمتُ للتوّ، آجلاً، بواجبٍ كان يثقل كاهلي، واجب دفن موتاي. كان ذلك دَينٌ أدين به لوالدَيّ ولنفسي. شعرتُ براحةٍ كبيرة. مع أنني غالباً ما فكّرتُ أنّه كان عليَّ أن أفعل ذلك، إلاّ أنني لم أكن أعلم بأنّ ذلك سيمنحني الراحة والسلام. القيام بواجبي حيالهما. ربّما،

ببساطة، القيام بواجبي حيال نفسي. كنتُ أعتقد أنّ ثمّة أشياءَ كثيرة أقولها لهما، وفي الواقع لم يكن هناك ما أقوله. ببساطة لقد أردتُ أن ألتقي بهما، وأن أنظر إليهما وجهاً لوجه.

الذات وجسدها

1

عدتُ لعدّةِ سنواتٍ خَلَت.

أنا في زنازين ثُكنةٍ للجيش. تحت الزنازين، توجد قاعة التعذيب. كنّا سبعة سجناء، ونصبح، استثنائيّاً، تسعة أو عشرة، إذ يضعون أناساً «على نحوٍ طارئ» في الرّواق، ثم يأخذونهم لاحقاً، فنصبح من جديد سبعة. ودائماً نكون رجالاً لا نساء بيننا. في مكانٍ آخرٍ من هذا السجن نفسه، هناك، حسب ما يُقال، مجموعة من ستين أو سبعين سجيناً. هناك، يختلط الرجال بالنساء. وعلمنا أيضاً أنّ هناك سجناء في كلِّ ثُكنات البلاد، وفي قسم شرطة مونتِڤيديو، وربّما حتّى في مفوّضياتها. كما علمنا بأنّ هناك بعض مَنْ ماتوا تحت التعذيب. اليوم هو السابع والعشرين من أيار 1972، وعددنا بالمئات. وفي غضون السنوات القادمة، سيكون هناك عشرات الآلاف من المعتقلين يخضعون للتعذيب!! كم سيكون عدد الجلاّدين الذين يقومون بالتعذيب؟

2

لقد كوّن الجميع فكرةً عن التعذيب. فحينما يعرف المرء بأنّه قد يُعتَقل، لا بدّ له من أن يفكّر في تبعات ذلك وما قد يتعرّض له لحظةَ اعتقاله. ولكن، ليس بوسع أحدٍ أن يكوّن فكرةً عن التفاصيل. فللتفاصيل علاقةٌ بمعرفة شخصية، مرتبطة بالجسد، لا بالجسد البشري عموماً، وإنّما بجسدِ كلٍّ فردٍ على حدة. التعذيب أشبه بمرض: فهو لا يؤلم الجميع بالطريقة ذاتها، ووحده من عانى منه يعرف الإحساس الذي يخلقه.

ما التعذيب؟ أَهو الجَلْد أم الدولاب[1] أم الخازوق؟

في الأسابيع الأخيرة، قبل وصولي إلى هنا، كان القمع

---

(1) gégène : إطار عجلة يُستَخدَم وسيلة للتعذيب، حيث يُوضَع السجين فيه بطريقة تجعله عاجزاً عن الحركة وتُسبّب ضيقاً في التنفّس وآلاماً شديدة في العمود الفقري - المترجم-.

يجري في الهواء الطلق في مونتِفيديو، ويمكن تلمّسه. كان الجيش، والقوات البحرية، والقوات الجويّة في دورياتٍ، ليل نهار، مسلّحين، متوعّدين، يثيرون الذعر والترويع. الطرقات مغلقة وحملات التفتيش مستمرّة على مدار الساعة. كان الجوّ متوتّراً، وعنيفاً، وكان العنف مفرطاً. كان يمكن قراءة ذلك في الصحافة وسماعه في الإذاعة. وقد أُحصي بين نيسان وأيار ما يقارب عشرين قتيلاً. وبالتالي، كان من المستحيل ألاّ يفكّر المرء في احتمال اعتقاله بين ساعةٍ أو أخرى وتعذيبه. ومن المستحيل عدم التساؤل حول كيفية تحمّل التعذيب. قلّما يهمُّ كلُّ ما نعرفه، وما أمكننا قراءته حول التعذيب. فتجربة التعذيب مختلفة عن كلِّ تَصوُّر مسبق، إنّها تجربة فريدة لكلِّ شخص.

اعتقدتُ قبل توقيفي بأنّه من الأفضل أن يترك المرء نفسه يُقتَل، أن يتحمّل إلى درجة تفوق قدرته، وبالتالي لن يستطيعوا تعذيب جسدٍ لا حياة فيه. ولكن ما لم أفكّر فيه هو أنني في الثالثة والعشرين، وصحّتي جيّدة، وقلبي في حالة ممتازة. إذاً، سوف أصل، تحت التعذيب، إلى اعتبار عمري وصحّتي عبئاً عليّ. لو كان قلبي ينكسر تحت التعذيب لقضيتُ وانتهى كلُّ شيء. ولكن قلبي لا ينكسر، ويعمل كقلبِ شابٍّ رياضيٍّ قويٍّ.

تحت التعذيب، يفضّل المرءُ الموتَ، وينتهي إلى الطلب من الجلاّد أن يقتله. فيردّ الجلاّد: «أن نقتلك، هذا ما تتمنّاه. ولكن، لن نفعل ذلك.»

3

لم يكن الموت تحت التعذيب مرغوباً لدى الجلاّدين، وببساطة أيضاً، لم يكونوا يفعلون شيئاً لتجنّب ذلك. لم يفعلوا كل ما بوسعهم. لقد قتلوا مَنْ أرادوا قتله، بطلقةٍ، أو رمياً في النهر، أو من علوٍّ، من شرفةٍ. لا تهمُّ الطريقة كثيراً، لقد قتلوا هؤلاء الأشخاص لأنّهم كانوا قد قرّروا قتلهم. ولكن الموت تحت التعذيب لم يكن مخطّطاً له. وهذا لا يرفع عنهم مسؤوليته، ولا يقلّل من خطئهم. كانت لديهم هيئة طبيّة، تخبرهم باستمرار إلى أيِّ حدٍّ يمكنهم الذهاب في التعذيب، ومتى عليهم التوقّف وترك المعتَقَل يرتاح. ولكن الجلاّد لا يستشير الطبيب قبل الشروع في عمله. كما لا يسأل المعتَقَل إن كان التعذيب «مناسباً أو غير مناسبٍ» له. هذا لا يشكّل جزءاً من أدبيات المهنة. لا يحصل الموت تحت التعذيب صدفةً، وإنّما بسبب البطش وإهمال الجلاّد ورؤسائه والأطبّاء. الأطباء العسكريون ليسوا

مدرّبين في الثُكنات، بل في الجامعة. قد يتساءَل المرء كيف تُدرِّب الجامعة نفسها الأطبّاءَ الذين يموتون تحت التعذيب وأولئكَ الذين يشرفون عليه.

4

كانت الليلة مشوّشة وصاخبة. بدأ التعذيب حوالي الساعة العاشرة أو الحادية عشرة، إذ نادراً ما يتم التعذيب أثناء النهار. أثناء الليل، تُسمَع صرخات الرجال والنساء ويُسمَع نُباح الكلاب التي يحرّضها العسكر على المعذَّبين لترويعهم. وبدورهم، يصرخ الضباط ويتوعّدون ويشتمون.

تفوح من قاعة التعذيب رائحةُ رطوبةٍ وتبغٍ. وهي، كمكانٍ للعمل، جرداء وغير صحيّة. فيها برميل معدني ضخم سعة مائتي لتر، مقسّمٌ إلى نصفين، مملوء بالماء. يُجَرّ السجين أو السجينة إلى القاعة بطريقةٍ وحشية، يُدفَعُ ويُضرَبُ بعنف، قبل بدء التعذيب، بقصد التخويف. ببساطة، إنّها عملية «تليين».

هناك جلاّدٌ شرّير وآخرُ لطيف. يقول اللطيفُ للمعتَقَل إنّه لا يريد أن يعذِّب، ولكنّ زميله رجل فظّ، صموت، عنيف، وخليق بما هو أسوأ.

ولإثبات ذلك، يتكلّم الشرّير. وإذ يفعل ذلك، سوف يفهم السجين في الحال كيف تسير الأمور هنا.

ولكنّ اللّطيف لم يتخلّ بعد عن منهجه اللطيف، ويواظب عليه. إنّه لا يُريد أن يُمارس التعذيب. ولكن ما لم يتكلّم المعتَقَل عن طيب خاطر، سيكون اللّطيف مرغماً على أن يدع زميله السيئ الطباع يتصرّف.

إذا شاء المعتقَلُ، يمكن لكلِّ شيء أن يسير بلا عنف. يكفي أن يستجيب لما يُطلَب منه.

ومهما يكن من أمر، على السجين أن يعلم أنّه حتى لو لم يتعاون، فإنّهم سوف يحصلون على المعلومات، وهذا هو الغرض من وجود الشرّير.

وبالتالي، من الأفضل للسجين، وكذلك لهم، تجنّب التعذيب واللحظة السيّئة التي ينبغي المرور بها. أَليس كذلك؟

إذاً، من الأفضل الشروع بالعمل من دون عنف.

لأنّه، وعلى السجين أن يعرف ذلك، لديهم الوقت الكافي لينتزعوا منه المعلومات. هل السجين مستعدٌّ للتعاون؟

يكون السجين مصاباً بحال من الدوران والإنهاك،

ولكنّ ذهنه يعمل بأقصى يقظة وسرعة: لا يمكنه التظاهر بالصلابة. عليه اختلاق أجوبة محتَمَلة لأسئلة مفتَرَضة. كما يمكنه الشروع بالهذيان عمداً في الحال ومنذ اللحظة الأولى. ومن ثمّ مواصلة هذا الهذيان لأيامٍ وأسابيع وشهور. وهذا صعبٌ وخطير.

لا يختار السجين الهذيان. بل يختار سبيلاً آخرَ، هو بدوره متعرّج ومحفوفٌ بالخطر، لا يعلم إلى أين يقوده، ولكنّه يعتقد أنّه قادرٌ على الاستمرار في المقاومة والمخادعة. أيكون ذلك من خلال التظاهر بالشجاعة؟

يَعِدُ السجين بالتعاون.

حسنٌ، إذا كان حقّاً يريد التعاون، فليبدأ بالإفصاح عن كلٍّ ما يعرف.

حينها يحدث سوء التفاهم بين الجلاّد والسجين. لأنّ السجين يقول إنّه يريد التعاون بشكلٍ جيد، ولكنّه لا يعرف أيَّ شيء.

في الواقع، يلعب السجين والضابط اللعبة نفسها. يريد السجين معرفة ما يعرف المحقّق عنه، ولذا ينتظر السؤال الذي سوف يوجّه إليه. إذا كان السؤال لا يمتّ إليه بأيّةِ صلةٍ، سيشعر بالراحة والهدوء. وإذا كان السؤال على صلةٍ به، وبنشاطه، أو إذا تضمّن معلومات يمكنها مساعدة

الجلاّد، سوف يسعى السجين لأن يُعدّ جواباً يعطي أقلّ ما يمكن من الأدلّة. لديه بضع ثوانٍ ليختلق شيئاً مقنعاً ومحتَمَلاً ولا يفشي أيّة معلومة لا يملكها الجلاّد من قبل. وبالتالي، فمن الأفضل الانتظار والاستمرار في إنكار كلّ شيء إنكاراً باتّاً إلى أن يطرح المحقّق سؤالاً ملموساً، ليتمكّن بذلك من إعداد كذبة ملموسة تبدو وكأنّها حقيقية.

يصرُّ الجلاّد على القول بأنّه لتوفير الوقت والمضايقات على الطرفين لا بدّ للسجين أن يقول كلّ ما يعرفه.

تبلغ الأمور نهايتها.

ينتهي الحوار، أو مثلما يتعيّن علينا تسمية ذلك، عندما يردّد السجين بأنّه لا يعرف أيَّ شيء.

يغضب الجلاّد اللطيف، أو يتظاهر بالغضب، ويترك مكانه للشرّير. يضرب الشرّير السجين، بلكمةٍ أو رفسةٍ. لا يدري السجين إن كان اللطيف أو الشرير هو مَنْ يضربه، ولكنه يفترض أنّ الاثنين يفعلان ذلك.

يقود الجلاّدون، الأربعة أو الخمسة، السجين إلى مقربةٍ من البرميل، ويحرّك أحدهم الماء بيَدِه.

أَيسمَع السجين صوت الماء؟ إذا لم يتكلّم، حينها سيهتدي إلى طريقه.

بعد لحظة، طويلة أو قصيرة، يضيق الجلاّد ذرعاً ويحاول تغطيس السجين في البرميل. تلك ليست مهمّة سهلة. يقاوم السجين المحاولة. فيبدأ حينها تليين عضلات المعدة. يتلوّى السجين تحت وطأة الضربات وينثني على نفسه ألماً، فيُغْطَّس في البرميل بدءاً من رأسه. كم من الوقت يستغرق هذا الأمر؟ لا يمكن تقدير ذلك. بالنسبة للسجين، هو الأزل.

5

بسبب الضربات التي يتلقّاها في معدته، تفرغ رئتا السجين، أثناء تغطيسه في البرميل، من الهواء، فيبتلع، وهو مقنّعٌ ومغلول، ماءً، ويشعر بأنّه يغرق. إنّه الشعور نفسه الذي ينتاب المرء حينما يشارف على الموت غرقاً.

حينما يُخرَج من البرميل، يكون قناعه النسيجي مملوءاً بالماء. فيشدّ أحدهم القناع على عنقه، ويتأخّر الماء عن الخروج. يستمرّ الشعور بالغرق للحظاتٍ إضافية. يصرخ السجين من شدّة الألم. ولا تكون الصرخات صرخات ألمٍ طبيعيّة، وإنّما صرخات بهيمةٍ، حيوانٍ يائس، يعجز عن التنفّس من فمه وأنفه. يتقطّع الصوت كفرقعاتٍ متوالية. إنّه خوارٌ وليس صراخاً. يثور جسده وينتفض، ولا هواء في أيِّ مكان.

6

يخوض السجين معركتين غير متكافئتين. واحدة منها ضدّ الجلاّدين، وهم كُثرٌ، ويمكنهم فعل كلِّ شيء، بينما السجين لا حول له ولا قوّة. حتى أنّه لا يعتمد على كلِّ جسده في الدفاع عن نفسه، فهو بلا يدين ولا يرى وبالكاد يتنفّس. ويعمل الوقت والتعب والألم والضعف الجسدي ضدّه. في هذا الجانب، ليس للسجين أيُّ شيءٍ يربحه، ويخسر كلَّ شيء. مع القوّة الجسدية والذهنية والحظّ والحنق والكراهية قَد يتعادل الطرفان هذا المساء. ولكن ماذا في المرّة القادمة؟

ليس بوسع الجلاّد أن يفعل كلَّ شيء، وإن صرخ بأعلى صوته «لدينا الوقت الكافي لننتزع منك المعلومات»، والسجين يعلم أن ذلك ليس صحيحاً. كلّما صمد السجين ومرّ الوقت، تفقد المعلومات التي يملكها راهنيّتها وجدواها. فربّما المعلومات التي سوف يعطيها السجين هذه

الليلة، وتتيح توقيف أشخاص آخرين، لن تعود مفيدة عند الفجر. فيستعجل الجلاّد، وهذا هو ما يعيبه.

يصبح الجلاّد سيّئ المزاج، ويتعب، ويتصبّب عرقاً، ويتوسّخ، وتخور عزيمته، فيبدأ بالشرب ويفقد السيطرة، ويضرب من أجل الضرب، بلا مهنيّة. وهذا عيبٌ آخر يعيبه. يقضي لياليه إمّا في التعذيب أو في الشارع لتوقيف الناس، وللدخول راكلاً إلى البيوت الآهلة بالأُسَر والنساء والأطفال. وينشغل عن بيته وعائلته.

بعد سنواتٍ عديدة، سمعتُ حكاية، لا أعلم إن كانت صحيحة. قام ضابطٌ شاب، متزوّج حديثاً، من الثُكنة التي أنا فيها، بدورياتٍ في الشوارع. أحسّ بالرغبة في المرور على بيته، ورؤية زوجته الشابّة، الوحيدة في البيت، والتي لم يرَها منذ أيام. لم تتوقّع الزوجة أنّ زوجها سيمرّ ليراها في تلك الساعة. أمر الضابط الشاب السائق بالتوقّف أمام بيته. نزل من السيارة. فتح الباب. دخل. كانت زوجته في السرير مع عشيقها. أخرج الضابط مسدّسه وقتل الرجل.

يخوض السجين المعركة الأخرى غير المتكافئة، مع نفسه. يتكلّم أو لا يتكلّم. وفي الحالتين هو خاسر. لا مكان للتعادل في هذا الجانب. إن لم يتكلّم، فسوف يستمرّ التعذيب إلى ما لا يعلم السجين، وكذلك يستمرّ الألم. وإذا اعتقد بأنّه سيتحمّل التعذيب بثباتٍ حتى النهاية

ولم يفلح في ذلك وانهار، فيمكن لذلك أن يكون مفجعاً، وأن يقوده إلى إعطاء كلّ المعلومات التي بحوزته دون مقاومة، ودون أن يرغمه الجلاّد على ذلك.

وإن تكلّم المعذّب، فسوف يواجه عدوّه الأسوأ. سيبقى وحيداً مع نفسه، لأسابيع وأشهر وسنوات، يراوده الشعور بأنّه سافل، ويتساءل لماذا، ويقول في نفسه بأنّه كان عليه وكان بإمكانه أن يتحمّل المزيد، أن يتحمّل أكثر من ذلك، ليلة أخرى، جلسة أخرى، تغطيس رأسه في البرميل لمرّةٍ أخرى.

7

يُظْهِر السجين، حينما يكون مغطّساً في الماء، قوّة لا يمتلكها في الحالة الطبيعية، فيحرّك ساقيه وجذعه، ويضرب رأسه بحافّة البرميل. فيضطرّ الضبّاط، وقد انثنى السجين، للإمساك به وهو غارقٌ في الماء، كي لا يُصاب في رأسه، ولا يغوص بالكامل. فيصعب حينها إخراج جسده الثقيل، وقد يفطس غرقاً: إنّها مسألة ثوانٍ. لحظة من الشرود، ويخرجونه من الماء جثّة هامدة.

حينما يُسحَب السجين من الماء، ينتفض جسده بعنف، ويضرب، لاإرادياً، مَنْ يمسكون به. إنّ مهنة الجلاّد لشاقّة، تتطلّب القوّة والحزم ـ هل تتطلّب نسيان الذات؟

يفوق طولي متراً وثمانين، ويقارب وزني ثمانين كيلوغراماً. أنا كتلةٌ، من اللحم والعظم، عصيّة على التعامل معها. حتى لو لم يعد الجسد يقاوم، ولم يعد سوى لحم ميّت، ليس من السهل تحريك وزنٍ كهذا وقامةٍ كهذه.

كان هناك ملازمٌ أوّل قصير القامة، بالكاد يزيد طوله على متر وخمسين سنتمتراً، سوف يغدو جلاّداً شهيراً في الأورغواي وخارجها. ذات ليلة، حينما أُخرجتُ من البرميل، تُرِكْتُ أنطرح أرضاً، وشرع الملازم الأوّل ينهال عليّ ركلاً. أدركتُ أنني أُضرَب، وأنّ رسغيّ المغلولتين خلف ظهري يتوجّعان، ولكنني لم أشعر بالألم. كان همّي في تلك اللحظة العثور عن الهواء، على كلّ هواء الدنيا.

ليس من الطبيعي أن يضربوا أحداً على الأرض بعد إخراجه من البرميل. عرفت السبب في الحال، وهو أنّ الملازم الأوّل القصير قد تولّى، مع ضابطٍ آخر، مهمّة وضعي في البرميل. وقد كنتُ طويلاً جدّاً وقويّاً جدّاً مقارنة به، وقد وجّهتُ له، وأنا في البرميل ورأسي إلى الأسفل، ركلةً في وجهه. فثار سخطه. حينما أخرجاني، انتقم منهالاً عليّ بالركلات، بينما أنا على الأرض مقنّعاً ومكبّل اليدين.

8

نحن في حزيران، والجو بارد. بعد جلسات التعذيب، يوضَع السجين، مكبّل اليدين خلف ظهره، واقفاً قبالة الحائط، منفرج الساقين، في زنزانته أو في الممرّ. تتورّم كعباه وساقاه، ويقوّم عموده الفقري بمشقّة وعناء.

تؤلمه رسغاه من جراء القيود الضاغطة عليهما، فيفقد الإحساس بإبهامه أوّلاً ومن ثمّ ببقية أصابعه، وكامل يده. فقد صُمِّمَت القيود لتضغط من تلقائها. وإذا حاول السجين إرخاءها، يحصل على نتيجة عكسية، فتضغط عليه إلى حدّ الغرز في لحمه. ولذلك من الأفضل تركها كما هي، لأنّها تضغط من تلقائها عندما يتخبّط السجين تحت التعذيب. ومن العبث المطالبة بإرخائها، إذ لا أحد سيهتمّ بذلك، والأفضل أن تكون مشدودة. وهذه العملية تسبّب ألماً متواصلاً يساهم في عملية «التليين».

بمضي الوقت، تبدأ القيود بتجريح اللحم. ويمتد

فقدان الإحساس بالإبهام إلى ما بعد نهاية التعذيب، لسنواتٍ عدّة.

وإذا ما أعيا ذلك السجين، يُطرَح على حشيّةٍ، ويبقى عليها إلى أن يأتوا من جديد في طلبه. لأنّه هنا يمكن للشيء كلّه أن يُستأنَف في أيّ لحظةٍ، وهذا ما لا يعلمه السجين بعد.

9

ماء البرميل قذرٌ تفوح منه روائح نتنة. حيث يطرح فيه السجين القيء واللعاب والشعر وحتى طاقم أسنانه. إنّ عمل الجلاّدين ليس هيّناً، إذ يجب بذل الجهد لتغطيس شخصٍ في البرميل بدءاً من رأسه. فما إن يصبح السجين في داخله حتى يحرّك ساقيه بقوّة ويبذل جهوداً يائسة لكي لا يغرق.

حينما يُخرَج، يكون مبتلّ الجسد من قمّة رأسه حتى أدنى جذعه، ويسيل الماء من خلال سرواله حتى قدميه. ويبتلّ الضبّاط بدورهم. وللحظات، يصبح الجوّ صاخباً في قاعة التعذيب. وتُضاف صرخات الجلاّدين إلى خوّار السجناء. وتفوح رائحة التبغ والعرق والكحول والبول ومطهّر المراحيض. وتفوح رائحة الشقاء الإنساني، رائحة لا يمكن تحديدها، ولكنّها موجودة تطفح بها قاعات

التعذيب في العالم بأسره. هنا، تفوح رائحة نموذجين من الشقاء: شقاء المعذَّب، وشقاء الجلاّدين.

لا تتماثل هاتان الرائحتان. ولا يماثل شقاء المعذَّب شقاء الجلاّدين، ولكن يبقى الألم ينال من الكائن ذاته.

10

يحاول الجسد أن يتلاءم مع كلّ الوضعيات. لا أحد يدري متى سيُقتاد إلى قاعة التعذيب، ويسعى كلُّ شخص لأن يتهيّأ للحظة أوان دوره. لا بدّ لك من أن تأكل كلّ ما يُعطى لك، وأن تستريح حتى وإن كنتَ «واقفاً على قدم واحدة»، وأن تنام حتى وإن كنتَ مبتلاً، ومقنّعاً، ومكبّلَ اليدين خلف ظهرك. ربّما يكون أسوأ ما يشعر به المرء هو رفعه بعنف، فيما هو نائم، لتغطيسه في البرميل. إذ لا يمكنه التهيؤ لذلك، ويجهل ما سوف يُسأل عنه هذه المرّة، هل ستكون الأسئلة نفسها التي سبق وجرى تكرارها أم أن الجلاّدين قد حصلوا على معلومات جديدة ستؤدي إلى أسئلة جديدة.

أحياناً، حينما لا يكون هناك مَنْ يستجوبونه، ولا يدرون أيّة أسئلة يطرحونها، يجرون «مراجعة». وتشتمل المراجعة على إعادة تعذيب السجناء الذين سبق أن

اسْتُجْوِبوا لعشرات المرات. يُستجوَبون على أيّ شيءٍ كان. وبما أنّ الضبّاط لا يعرفون عن أيّة معلومة يسألون، يطرحون الأسئلة اعتباطاً.

بعد بضع جلسات من التعذيب، يتمكّن السجين من التمييز متى يكون الجلاّدون في حالةٍ من اليقين ومتى يكونون حائرين، ومتى يتعلّق الأمر بـ«مراجعة» وليس باستجوابٍ «حقيقي». يمكن تحمّل التعذيب أكثر أثناء المراجعات. إذ سرعان ما يتعب الجلاّدون، ويأخذون سجيناً آخر، ومن ثمّ غيره.

11

يوكَل كلُّ سجينٍ إلى «مسؤول»، يكون بشكلٍ عام نقيباً إذا كان السجين «مهمّاً». ويُكلّف الملازمون الأوَل، والملازمون بالسجناء «الأقلّ أهمية».

المسؤول عن السجين سيّده. ربّما ليس سيّد حياته، إذ لقتله عمداً، سيكون عليه طلب الإذن، ولكنّه سيّد كلٍّ ما تبقّى. والسجين ملكٌ لمسؤوله. في حالتي، كنتُ ملكاً لنقيبٍ، هو مَنْ أوقفني. كان النقيب «المسؤول عنّي» يدّعي إنّه منصف.

«إن أعطيتني المعلومات التي أريدها، فسأعاملك معاملة حسنة.»

يتعلّق الأمر بي لكي يتمكّن النقيب من إظهار حسّه بالعدالة.

هذه ليست مسألة جديدة، فجميعهم يقولون الكلام نفسه. يكبرني نقيبي ببضع سنوات، ويقارب الثلاثين من عمره. هو سمينٌ بعض الشيء وأقصر منّي، صموت، وذو

صوتٍ ثخين. يدخّن طوال الوقت. وأحياناً، يقدّم لي سيجارةً.

ملكيّة المسؤول لسجينه مطلقة. فالسجين ينام ما دام مسؤوله يرى ذلك مناسباً، ويأكل إن شاء مسؤوله ذلك، وغالباً ما يذهب إلى المراحيض إذا ما أراد مسؤوله ذلك، ويُقيَّد من الأمام أو من خلف الظهر حسب ما يقرّره مسؤوله، ويتغطّى إن أمره مسؤوله بذلك. إنّه «سيّده»، ولكنّ كلّ واحدٍ منهما ملكٌ للآخر. السجين ملكية حصرية، بينما يمكن للمسؤول أن يكون سيّد عدّة سجناء في آنٍ واحد.

بما أنّ المسؤول يدير تعذيب معتقَلِه، يتعلّم أن يعرفه في العمق. يراه في أسوأ الظروف، أي حيث يُقارب أعمق أعماق الكائن البشري. يراه يتألّم، ويسمعه يصرخ، ويشعر بصموده العبثي كحيوان في ضيقٍ شديد. المسؤول دائم الحضور، حينما يطالب السجين بأن يُترَك ليتنفّس، وأن لا يُضرَب، وعندما يريد الذهاب إلى المراحيض، عندما يكذب ويختلق ويتذلّل، حينما يبرد السجين ويجوع ويعطش، عندما يئنّ تحت قناعه، حينما لا يعود السجين سوى لحم متألّم، يغمره البول، كريه الرائحة، كخرقةٍ مبلّلةٍ على حشيّةٍ قذرةٍ. لا يُخفى شيءٌ يخصّ المعتقَل على مسؤوله.

12

لا أدري إن كانت هذه المعرفة، فهي حقّاً معرفة، صحيحة وعميقة، كأنّها ولوجٌ إلى أعمق أعماق الكائن بسراجٍ صغير، تجعل المسؤول أفضل. لا أدري إن كانت معرفتي بهذه الطريقة تجعل مسؤولي أفضل حالاً. وفي كلّ الأحوال، لا أعتقد أن ذلك يجعله لامبالياً.

حينما التقيت به، ذات مرّة في السجن، بعد ذلك بسنين، وأراد أن يثرثر معي ويقدّم لي مقعداً. رفضته وبقيتُ واقفاً، وعندما رفع الكلفة معي وخاطبني بالمفرد وخاطبته بضمير الجمع أنتم، وحينما سألني عن صحّتي وعائلتي، وما إذا كنتُ أنام مرتاحاً وآكل جيّداً، وأتلقّى البريد، منحني الانطباع بالتبصّر.

ربّما ليس ذلك سوى رغبة مني في أن جسدي المحطّم وجسد الكثيرين غيري قد أفاده في شيء ما. إنّها رغبة سخيفة في غير أوانها، بل ولا زمن فعلياً للتعبير عنها، من الممكن صياغتها هكذا:

فقط لو أنّ بوسع الألم الذي سبّبه لي مسؤولي أن يولّد عنده جزءاً من الألف من الأفكار التي راودتني وأنا أتصوّر أنّ هناك على الأرض كائنات مثله. فقط لو أنّ بوسع مسؤولي، حينما سيموت بالسرطان، وقد علمت بأنّه مات به بعد سنوات، حين أصبحت شخصاً حرّاً دائم البحث عن حريته، لو أنّ بوسعه الاستفادة من ذلك لكي يدمج في موته كلّ ميتة من الميتات التي جعلني أموتها، غريقاً في البرميل. هذا ليس انتقاماً ولا سخرية ولا دعابة. حقّاً، أتمنّى له ألاّ يموت دون معرفة ذاته حتى النهاية. فليكن كذلك.

13

مسؤول صالحٌ يعتني بسجينه. فلا يسمح بأنّ يعذّبه آخرون، أو أن يضربه الجندي المناوب بمبادرة منه، وبلا أيّ مبرّر. مسؤول صالح يكون حانياً بعض الشيء على سجينه: لا يعذّبه أبداً إلاّ عند الضرورة. ويكون غيوراً: لا يسمح لضباطٍ آخرين من رتبته أو أدنى رتبة أن يتولّوا أمر سجينه.

أحياناً، عند الفجر، يأتي المسؤول للحظة إلى الزنزانة ليتباحث مع سجينه في مواضيع لا علاقة مباشرة لها بالحصول على معلومات من أجل العقاب. يسأله عن أسرته، وأفرادها وكم عددهم، وماذا يعملون. ويميل إلى أن يُطلع السجين على مشاعره واهتماماته الاجتماعية والسياسية. كما يمكن له أن يحدّثه عن جذوره الاجتماعية، ويقول له بأنّه هو أيضاً من الشعب. بل ويمكن له أن يُخبره بأنّه ليس متّفقاً تماماً مع الطريقة التي تُدار بها التحقيقات،

ولكنه ليس هو من يأمر بها. وبالتالي لا بدّ أن يفهم السجين، من وجهة نظر ما، بأنّهما ضحيتان لقرارات عليا خاطئة.

بعد هذه الاعترافات، هل يحتاج السجين إلى شيءٍ خاص؟ كلا؟ حسنٌ، حينها ينصرف المسؤول، إذ إن هناك أمراً آخر ينبغي القيام به. ربّما يكون هناك شخصٌ، «واقفٌ على قدمٍ واحدة»، في مكانٍ آخر من الثُكنة بانتظار استجوابه، ويتمنّى أن تُكسَر ساقه، وأن يُقتَل بطلقةٍ في المعدة، وأن تنفجر الثُكنة وينفق الجميع، من مسؤولين وضبّاط وجنودٍ وكلاب، لكي يتمكّن بذلك من النجاة والخروج راكضاً، والعودة إلى بيته، نحو أذرعٍ حنونةٍ تضمّه. نحو الحريةِ.

14

يضفي وجود المسؤول نظاماً على الأمور وعلى الثُكنة، وعلى السجين أيضاً. المسؤول هو انعكاسٌ للسجين، مزيجٌ من أبٍ متسلّطٍ وخبيرٍ في المعاقبة، سيدٌ لعبيده، إله صغير يدير الألم والوجبات والماء والهواء والمأوى والصحّة والخروج إلى المراحيض. لا غنى عن المسؤول في عالم الألم هذا.

لا أحد ينكر أهمية المسؤول. مع ذلك، هناك أناسٌ يفكّرون بطريقة مختلفة، بمنطقٍ آخر. بكلمتين: هناك أناسٌ يعتقدون بأنّ المسؤول ليس كلّ شيء وأنّه لا يستطيع تغطية كلّ مجالات حياة السجين.

بمرور الزمن، في الثُكنة، يطوّر المعتَقَل ومسؤوله علاقة بينهما تجعل المسؤول يبدي شيئاً من التسامح حيال سجينه. قد لا يكون ذلك تسامحاً، وإنّما ببساطة لا يعود المسؤول يرى سجينه بموضوعية. يعتقد بأنّه يعرف كلّ

شيء عن معتَقَله، بينما في الحقيقة يمكن للسجين أن يُخفي عنه جانباً هامّاً من حياته ونشاطاته. ولذا يقرّر الناس الذين يفكّرون، المنطقيون، أن يغيّروا، لليلةٍ، المعايير. السجناء الذين يُعتَقَد بأنّهم قادرون على الاحتفاظ بمعلوماتٍ هامّةٍ سوف يكفّون، لساعاتٍ، عن أن يخصّوا مسؤولهم وحده، وسوف يُستَجوبون من قبل ضابطٍ آخر.

وسوف يتم تعذيب ما يقارب عشرة سجناء لوقتٍ قصيرٍ ولكن بقوّة وبقسوة. وهذا يستغرق الليلة بأكملها، إذ يخصّص لكلٍّ سجين نصف ساعة. ومن المستحيل أن تتحمّل مجموعة واحدة من الجلاّدين خمس ساعات من التعذيب. يمكن لسجينٍ أن يحتمل ذلك، أمّا الجلاّد فلا. ولذا سيكون هناك تناوبٌ على التعذيب. وسيقود كلٌّ واحدٍ، وإن كانوا جميعاً في القاعة، استجواب سجينٍ ليس سجينه هو.

15

أثناء «الجلسات الخاصّة» غالباً ما تبرز معلومة جديدة. قد لا تكون جديدة ولكنّها تتيح الربط بين معطيات يمتلكها الجلاّدون من قبل، ولكنّهم لم يتمكّنوا حتى تلك اللحظة لا من فهمها ولا الربط فيما بينها، ولا من استخلاص نتائجها. ومن الصعب التمييز بين المعتقلين حينما يكون لجميعهم اسمٌ مستعار، وأحياناً عدّة أسماء. وقد لا تكون للجلسات الخاصّة غايةٌ سوى حلٍّ مشكلة الأسماء المستعارة.

ليلة الحقيقة هذه، حيث اختبار المحبّة بين المعتَقَل ومسؤوله، لا تفعل سوى تأكيد خصوصية العلاقة التي تربطهما. إذا لم تُسفر الجلسة الخاصّة عن أيّة نتيجة، يؤكّد المسؤول أنه يستطيع الوثوق بمعتَقَله. وإذا حصل بخلاف ذلك وأعطى المعتَقَل، تحت تعذيبٍ شديدٍ وقصير الأمد، معلومات لم يكن رئيسه يعرفها، تفسد العلاقة بينهما. ويشعر المسؤول بأنّه خُدِع. ولكن هذا يؤكّد أنّه شعر بأنّ

هناك شيئاً ما بينهما، شيئاً تحطّم حينما اكتشف بأنّ سجينه قد كذب عليه. فيغضب، ويلوم معتقله على عدم إعطائه هذه المعلومات له هو. وبإحراجه أمام رؤسائه وزملائه.

وعلى مدى أيام، يُظهر المسؤول لمعتَقَله بأنّه قد ارتكب ذنباً لا يُغتَفَر. فلا يأتيه عند الفجر في زنزانته ليبادله بعض الأحاديث، ولا يقدّم له سجائر. باختصار: لا يعود يهتمّ به مثلما كان في السابق.

ولكن بما أنّ المسؤول رحيم، وبالتالي متسامح، فسيُظهر لمعتَقله في الأيام التالية بأنّه قد غفر له هذا الإثم.

وهذا لن يحدث ثانية، وما لم يعطه كل معلومة يمتلكها، فلن يثق به أبداً.

16

ثمّة مراحيض في الزنازين. والتبوّل حاجة دائمة للسجناء. ويمتلك الجنود القائمون على السجناء إيقاعها، وربّما ضوابطها، ولا يقودون السجين إلى المراحيض عندما يطلب منهم ذلك. يأخذون وقتهم. ومع أنّهم لا يفعلون أيّ شيءٍ سوى البقاء جالسين، فإنّهم لا يستجيبون لطلب السجين. ولذا يطلب السجين الذهاب إلى المراحيض قبل أن ينزحم. وبهذه الطريقة قد يؤذَن لهم بالتبوّل عندما يصل مرحلة لن يعود بإمكانه ذلك. كما لا ينبغي الإلحاح على ذلك كثيراً. فقد يكون للإلحاح أثر عكسي. يستاء الجندي ويقرّر معاقبة اللجوج ولا يقوده إلى المراحيض قبل مضي ساعات عديدة.

إلحاح السجين مجازفة، فربّما يوصي الجندي المنصرف زميله القادم:

«لا تأخذ ذاك السجين إلى المراحيض، إنّه يتخابث.»

ربّما يعود كلّ هذا إلى واقع أنّ الجندي يخضع لضغطٍ كبير، فهو يناوب لساعات طويلة، وقلّما ينام، ولا يُسمح له بالعودة إلى بيته، وقد ينال لأدنى خطأ أو سهوٍ عقاباً قاسياً. فلا يبدر منه شيئاً ويبقى خاملاً. فلكي يقود سجيناً إلى المراحيض، التي تبعد ثلاث خطوات، عليه فكّ قيوده من خلف ظهره، ويضعها أمامه، ثم يعيد وضعها خلف ظهره. هذا الأمر يغيظ الجندي، وربّما يستتبع شيئاً من الخطر عليه. وبالتالي، لا يأخذه إلى المراحيض. فينتظر السجين، وفي نهاية المطاف يتبوّل في ثيابه برضى منه أو مكرهاً. وفي برودة الشتاء، يثير البول الذي يسيل على طول الساق ويبلّل السروال شعوراً لحظياً باللذّة. فحرارة البول، وإن كنا نعلم بأنّه سيترك رائحةً وسيهيّج الجلد، تخفّف البرد، وفي الوقت نفسه ترتاح المثانة.

التغوّط غاية رفيعة. ينبغي على السجين أن يفعل ذلك مقنّعاً، وبالتالي لا يرى الحفرة في الأرض. فيجب وضع قيوده من الأمام. ثمّ يتوجّب على الجندي أن يرفعها حينما يحتاج السجين لأن يتمسّح. ثم يضعها من جديد إلى خلف ظهره. وهذا يتطلّب الكثير من العمليات.

ومع أنّه لا أهمية لذلك، لأن القناع لا يتيح رؤية أيّ شيء، فإنّ السجين يعلم أنّ المراحيض من دون باب وأن الجندي موجودٌ، مستنداً إلى الكوّة، وهو إمّا يتفرّج عليه أو

يثرثر مع جنديٍّ آخر. بمرور السنوات سوف يعتاد السجين على أن يفعل ذلك علانيةً، في أيّ مكانٍ كان، بما في ذلك في مكانٍ مزدحمٍ بالناس. ولكنّه يبقى يحافظ على عاداته القديمة، ويحتاج إلى الخصوصيّة.

نظراً للصعاب العديدة، يفضّل السجناء عدم التغوّط. فيصيبهم الإسهال، أو الإمساك. وكانت هذه الأخيرة هي حالتي: أمضيتُ أربعة أسابيع، خمسة وستّة، دون أن أتمكّن من التغوّط.

17

يتحمّل السجين ويَثْبت لأنّ للجسد القدرة على صمودٍ لامحدود. ما لم يقاوم جسده، سيموت. وينتهي التعذيب.

ولكن بدايةً، هناك أمرٌ أكثر ضرورة من قدرة الجسد على تحمّل الألم يجعل السجين يصمد. وهذا الأمر ليس إيديولوجيته ولا حتى أفكاره، ولا هو الأمر ذاته عند الجميع. يتعلّق المُعذَّب بشيءٍ يتجاوز ما هو منطقي، أبعد مما يُصاغ. كرامته هي التي تجعله يَصمد. ربّما ليست كرامة المناضل السياسي، وإنّما كرامة أخرى، أكثر بدائية، مكوّنة من قيمٍ بسيطةٍ لا يعلم متى تعلّمها، ربّما على مائدة المطبخ في بيته، حينما كان طفلاً، أو في العمل، أو على مقاعد المدرسة. إنّها ليست كرامة مجرّدة، وإنّما كرامة نوعيّة جدّاً. إنّها كرامة إدراكه بأنّه لا بدّ وأن ينظر ذات يوم في وجه أطفاله وزوجته ورفاقه وذويه. حتى وإن لم يكن عدد الأشخاص كبيراً: تكفيه الرغبة في أن يشعر بنفسه،

يوماً ما، مرفوع الرأس أمام شخصٍ واحدٍ. من أجل عينيه، ومن أجل تلك النظرة المستقبلية، يستغرق في شقائه الخاصّ ويسترخص روحه، ويصرخ ويكذب ويتمنّى الموت لتسكين ألمه، ويريد أن يحيا لكي يتذكّر ذات يوم بأنّه حتى وهو تحت التعذيب حافظ على كرامته التي تعلّمها، ويتذكّر بأنّه لم يثق قط بجلاّده، وأنّه كرهه، وأحسّ بأنّه كان قادراً على قتله بيديه، وأن يجعله يسبح في دمه، وأن يسحقه ويذري رماد عظامه.

لأنّ الحقد، الحقد المجرّد، يساند بدوره، ويساعد على قضاء ليلةٍ، ليلة أخرى، وفي تحمّل الميتات المتعاقبة في البرميل، وصرخات الرفاق.

بعد خمس عشرة سنة من الحرية المستعادة، يعاودني، وإن نادراً، الكابوس أحياناً. أكون في بيتي، وأُعتَقَل. أُدرك وجودهم أمام بيتي، ودخولهم عليّ. فأقفز من السرير وأبحث عن سلاح. أكرههم، أكرههم إلى أقصى درجات الكراهية. أبداً، أبداً لن يأسروني من جديد، أبداً لن أعود إلى القناع، وجلسات البرميل والتقزّز من جسدي. لا أريد قتلهم، ولكنني سأجعلهم يقتلونني.

وأبحثُ وأبحث ولا أعثر على شيء، فأنا لا أملك أسلحةً، وأعيش بين الكتب والأوراق. ويتملّكني اليأس. لا أريد الفرار، أو ربّما لا أستطيع، فعددهم كبير،

وحضورهم كثيف، والمنزل مطوّق. ما لم أجد ذلك السلاح، فلن أتمكّن من دفعهم إلى قتلي، وسوف يقتادونني.

أستيقظ مذعوراً. ليس ذعراً منهم، وإنّما من نفسي، من مشاعري، من هذا الحقد القديم جدّاً والعميق جدّاً، والذي لا يزال يحيا في جَنَباتِ أعماقي. وأفكّر: هل هذا الرجل هو أنا؟ أأكون هكذا، قادراً على فعل هذا؟ وأسألُ جسدي إن كان هو مَنْ لم يستطع النسيان.

ويطلع النهار وأعرف أنني لا أكرههم، وأنني لا أتمنّى موتهم، وأنّني لا أكنّ لهم سوى الاحتقار. ولكن بعد بضعة شهور، بعد عامٍ، يعاودني الخوف، وسوف أقرّر مرّة أخرى في منامي، دون أن أفكّر في ذلك، ودون أن أكون قد فكّرت في ذلك أبداً يقظاً، بأنّه من الأولى بي أن أموت من أن أشعر من جديد بالتقزّز من جسدي، ذاك الحيوان السابح ببوله، ذاك اللحم الذي أذلّته قوة الضربات.

18

لا نستحمّ، ولا نحلق ذقوننا. فتنبعث من جسدنا روائح كريهة. ولا نعير كثير أهمية لرائحته، فثمّة مسائل أخرى تشغلنا: أن نُعَذَّب أقلّ ما يمكن، وأن لا نعطي معلومات للجلاّدين، أن نأكل ونرتاح وننام. ولكن أحياناً في النهار، حينما لا يكون هناك تعذيب، يشمّ السجين رائحة العرق واللعاب السائل على اللحية والقناع، ورائحة شعره وشعر الآخرين الذي يَعلَق تحت القناع عندما يوضَع في البرميل، ورائحة البول والأنفاس الكريهة، إذ تمرُّ أسابيع دون أن ينظّف السجين أسنانه. ويختلف الاشمئزاز من الجسد من فردٍ إلى آخر. البعض يتحمّل أكثر من سواهم الروائح المنبعثة منهم. وفي كلٍّ حال، ينتهي المرء بالاعتياد عليها. أو يدرك أنّه ليس بوسعه أن يعير أهمية لرائحة جسده.

19

لدى السجين مشاكل أخرى أكثر أهمية، إنها مشكلة وحيدة: التعذيب. والتعذيب يعني محاولة السكوت، محاولة نسيان كلّ ما نعرفه. ولكن القدرة على النسيان ليست دائماً تقنية مناسبة. لأنّه في اللحظة التي يتمنّى فيها المرء، تحت التعذيب، تذكّر أقلّ ما يمكن، تعود الذاكرة. فلا يسعى المرء إلى النسيان وإنّما إلى استبقاء ما يعلمه في الزاوية الأكثر خفاءً من ذاكرته، وسدّها أمام كلِّ تطفّلٍ، بما في ذلك تطفّل ألمه الخاصّ، الذي يُرغِمه على فتح المكمن الذي يخفي ما يريد الجلاّد معرفته.

ولكن، في حال أوشك الألم على فتح مكان المعلومة، من الأولى بالسجين أن يعدّ أجوبته على الأسئلة المحتَمَلة. إن سألوني عن كذا فسأجيب بكذا. لا أعرف شخصاً كهذا، وذاك أعرفه مذ كنّا أطفالاً، ولكن لا تربطني به أيّة علاقة سياسية، لا شيء بيننا سوى الصداقة.

يمضي السجين الساعات بهذه الأفكار. مع أنّه يعجز، أحياناً، عن تجنيب الفكر سلوك دروبٍ لا يقصدها الوعي: ذكرياتٌ ممتعة. والوالدان اللذان لا أخبار عنهما. والنتيجة: إذا نجحتُ في الفرار، فإلى أين سأذهب لكي لا يُعثَر عليّ مرّة أخرى؟ فيأتي الهذيان. يتوه العقل بلا تبصّر ويثرثر ويسمع أصداء هذياناته. حينما يُدرك السجين أنّه يهذي، يحاول أن يركّز على الأمر الوحيد الذي يهمّه: التعذيب القادم، والكلمات التي سيكون عليه أن يبتلعها.

20

يتعرض الجسد للاختناق في برميل الماء، وللضربات والقذارة. وهي أحاسيس جديدة تماماً بالنسبة للسجين. وبعد سنواتٍ عديدة، حينما سأكون مريضاً، عاجزاً حتى تحريك ساعديّ، سأتوصّل إلى نتيجة مفادها أنّ الألم الجسدي هو بوابة الولوج إلى معرفة الذات. وأنا مريض، سأتأكّد من أنّ هناك جوانب من شخصيّتي لم أكن أعرفها، وهي التي تماثل ما يُحَسُّ به تحت التعذيب: الوصول إلى حدٍّ قد يُعطي المرء عنده أيّ شيء ليخفّف ألمه، وليشعر بأنّه ليس هناك أيّ شيء أكثر قرباً منه، وأكثر أهميةً، وأكثر محبّةً من جسده.

يمكن للألم الجسدي أن ينجم عن التعذيب أو المرض. الشيء الأوّل الذي يُريده المرء هو أن يزول الألم، وكلّ ما تبقّى ثانوي. لا يمكن للمريض أن يفعل شيئاً سوى انتظار نتائج المعالجة الطبّية. أمّا بالنسبة

للمعذّب، فيرتبط تخفيف الألم به هو. يكفيه أن يتكلّم حتى يُكَفَّ عن تعذيبه. فيبدأ الصراع: إذا تكلّم تجنّباً للتعذيب، فسيكون عليه تحمّل عبء ضميره، الذي يردّد عليه بأنّه قد سلّم رفاقه. حينها، يُؤْثِرُ الألم، قدر ما يستطيع، ويعلم أنّه يُرغم جسده على التألّم وعلى المقاومة ليحافظ على كرامته أمام ذاته.

ولكن، متى سيتوقّف الألم؟

هذا يرتبط بالجلاّدين، إنّهم هم مَنْ سيقرّرون لحظة التوقف عن استجواب هذا السجين أو تلك السجينة. ولكن الألم يرتبط أيضاً بالسجين: ربّما يكفيه أن يعطي المعلومات التي يريدونها كي يتوقّف الألم. ولكن حينها يعود الضمير: هذا الألم سيمرّ، سيمرّ في لحظة معيّنة. إنّه يتطلّب الشيء القليل من الجسد، يتطلّب التحمّل، ليلة أخرى فقط. لأنّ ألم الجسد سيهدأ ذات يوم. أمّا الألم الآخر فسيستمرّ إلى الأبد، وسيكون عليه أن يتعايش معه أبداً.

21

القذارة هي بوابة أخرى نحو معرفة الذات. فالروائح الكريهة، والبول على الثياب، واللعاب وفضلات الطعام على اللحية، والشعر الكثّ الذي لم يُغسل منذ أسابيع، والجلد الذي يبدأ بالتهدّل لغياب الشمس وانعدام النظافة، أشياء تثير التقزّز والنفور. لا أحد يطيق وجود شخصٍ في حالٍ كهذه إلى جانبه. ولكن لا بدّ أن يطيق المرء ذاته. هذا الجسد المتّسِخ، الفائح بالروائح الكريهة، المتألِّم من الضربات وانعدام الراحة، الناعس، الذي لا يمكنه أن يحرّك قدماً دون إذنٍ بذلك، يثير التقزّز والنفور. يمكن القول، كصورةٍ بليغةٍ، «إنّه مقزِّز». هناك أمرٌ آخر يجب الإحساس به: «الآن، أنا المقزِّز.»

ولكن لا يمكن للمرء أن يطلب من جسده تحمّل الألم وأن يصارحه في الوقت ذاته بتقزّزه منه. فيعاني المشقّة في سبيل هذا الحيوان. إنّه يثير التقزّز ولكن عليه أن يحبّه،

لأنّه كلّ ما لديه، لأن كرامته تتوقّف على مقاومته. لأنّ ما يريده الجلاّد هو أن يتقزّز السجين من نفسه. أن يكون مجرّداً من المقاومة إلى درجة الاعتقاد بأنّه لا يساوي شيئاً، وبالتالي لن يكون للصمت والكذب والمقاومة معنى. إذا كان المرء بلا قيمة ويتقزّز من نفسه، فعمّ يمكنه الدفاع إذاً؟ حتّى ولا عن ذكريات المستقبل.

لا أعرف كيف أشرح إلى أيّة درجة يجعلنا التقزّز من جسدنا نرى أنفسنا بطريقة مغايرة، وأن هذه المعرفة موجودة من أجل الحياة. إنّه بعدٌ لا تمنحه، كما يبدو لي، الحياة الطبيعية، أو أنّها لا تمنح إمكانية استشفاف هذا الجانب الأوّلي والأساسي، الذي يجعل المرء يعرف الحيوان في ذاته. الحيوان الذي يكونه، الذي كانه على الدوام، والذي يمكنه أن يكونه في أيّ لحظةٍ، لأنّه اختار أن يصبحه، أو لأنّه أُرغِم على ذلك.

بعد ذلك بسنوات عديدة، سأرى وسأعتبر جسدي حيواناً أليفاً. عليَّ أن أعترف له بالتقزّز الذي شعرتُ به حياله ذات يوم، مدركاً أنني لم أكن أُطيقه، ولكنّه كان كلّ ما لدي، وكان عليّ أن أستمرّ في محبتي له، وأن أعتني به وأصونه. أن نحبّ الحيوان الذي نكون، لكي نستمرّ في كوننا كائنات بشرية.

22

هناك معرفة أخرى بالكائن البشري، في هذه الظروف. هناك الضباط، الذين يعذِّبون، ويثملون، ويصرخون، ويتصبّبون عرقاً، ويتّسخون بوضع السجناء في البرميل وإخراجهم منه. فنتساءل: متى يعود الواحد منهم إلى بيته؟ وحين يعود، ماذا يروي لزوجته، لخطيبته، لأطفاله، لوالديه، لأصدقائه؟ الجلاّد مثلنا، يتكلّم اللغة نفسها، وينتمي إلى المجتمع نفسه، ولديه قيمنا وآراؤنا نفسها، من أين جاء، أين يظهر شخصٌ كهذا؟

هناك الجندي أيضاً، الذي يخضع للأوامر، أيّاً كانت، فالأمر عنده سيّان. الجندي ليس مسؤولاً، ورؤساؤه هم من يرغمونه على أن يستحيل جلاّداً. ولكن فجأةً نكتشف أنّ الجندي يقدم على أمورٍ لم يُطلَب منه الإقدام عليها. لا بدّ للسجين أن يُقاد، مقنّعاً، في كلِّ لحظة. فيتسلّى الجندي بأن يجعل السجين يصطدم بجدار. وبما أنّ السجين لا

يستطيع حتى أن يتحسّس ما هو أمامه وهو يمشي مكبَّل اليدين خلف ظهره، تأتي الضربة على جبينه أو وجهه. لا تكون الضربة شديدة، ولكن فعل المفاجأة هو أكثر ما يؤلم.

يقول الجندي:

«آه، عفواً.»

ونعلم أنّه يفعل ذلك ليتباهى أمام جندي آخر موجود في المكان. ويضحك الاثنان.

فنتساءل لماذا يقدم الجندي على أمرٍ لم يطلبه أحدٌ منه، وهو ليس حتى تعذيباً بهدف تلقّي المعلومات، وإنّما هو مجرّد خبث لا سبب له ولا غرض منه. والجندي الذي يجهل مَنْ يكون السجين الذي يقتاده وما اسمه، بل ولا يدري إن كان سجيناً بطريق الخطأ وقد يُطلَق سراحه بعد أسبوع، يصدمه ويضربه لمجرّد التسلية. وبما أنّنا تعلّمنا أنّ البشر جميعهم سواسية وآمنّا بذلك ولطالما أكّدناه، نتساءل: كيف لهذا الكائن البشري، الجندي، أن يتسلّى بجعل إنسان أعزل تماماً أن يصدم رأسه بالجدار؟

إنّها معارف جديدة: التقزّز الذي يوحي به جسدك، والضابط الذي يعذِّب ويؤكّد أنه يفعل ذلك من أجل العدالة، والجندي الذي يتسلّى بجعل السجين يصدم رأسه بالجدار. إنها أوجه أخرى للكائن البشري.

23

لا أريد أن أمثّل دور البريء، الذي لا يعرف ولم يعرف العنف قطّ. لقد انتميتُ حديثاً إلى هذا العالم. لقد كنتُ واحداً من أولئك الآلاف من الشباب الأمريكيين اللاتينيين الذين اعتقدوا بأنّه لا يمكن استئصال الجوع والبؤس والاستغلال ووفيات الرضّع الممكن تجنّبها إلاّ بعنفٍ مضاد. لم أعد أؤمن بذلك، ولكن هذا لا يمنحني الحقّ في أن أُسقِطَ الماضي، على الأقلّ ماضيَّ أنا، الذي أتحمّل وحدي مسؤوليته.

في تلك اللحظة، حيث لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً سوى محاولة النجاة من التعذيب الذي ربّما يكون أكثر ما أستحقّه، لم أكن في وارد أن يذهب تفكيري بعيداً جدّاً.

ولكن بعد ثلاثين عاماً من ذلك لا يرتكز سلوكي إطلاقاً على رؤية مغايرة، على لعب دور الأنقياء، دور الذي لم تكن له أبداً صلة بالعنف. لن أغضّ الطرف لكي أتنكّر

للعنف القديم الذي شاركتُ فيه، ولا لكي أتغاضى عن العنف الجديد. سأظلّ مؤمناً بأنّ ثمّة أوقاتاً يحقّ للمرء فيها أن يقاوم ويتمرّد بعنفٍ ضدّ العنف والبؤس وانعدام الحريّة.

حتى وإن حدث وراودني الشكّ، فلن أكفّ أبداً عن الإيمان بالكائن البشري، بالجانب المشرق منه، القادر على أعمال من التضامن والتضحية تفوق الوصف. ولكنني سوف أعرف أيضاً أنّ الكائن البشري حيوان قادر على أن يرتكب الشرّ المطلق، وأن ينغّص عيش الآخر بالتسلية، وأن يجعله يموت تحت التعذيب. قبل اعتقالي، كنتُ أجهل أنّه يمكن لهذا السقوط إلى الهاوية، هذه المهانة التي لا حدود لها، أن يحدث. من المرعب النظر إلى هذه المرآة. هذا هو الدرس الذي سأكون قد تعلّمته في تلك الزنزانات.

24

كذلك لدي متّسعٌ من الوقت للاستسلام للذكريات. تلك التي عشتها، لحظات ممتعة مع والديَّ وأختي وأصدقائي. لم أدرك أنني لا زلت صبيّاً، وأنني لم أعش بقدر ما كنتُ أعتقد. سأفكّر هذا التفكير بعد بضع سنين. ما أشعر به الآن هو أنّ ذكرياتي قليلة، وأنني أعود إليها ذاتها باستمرار، ليس لأنّها ممتعة فحسب بل لأنّني لا أملك سواها. وأنني، رغم سنواتي القليلة المتبقيّة، قد أستطيع الآن أن أحظى بذكرياتٍ أخرى، ولكنني لم أستفد بقدر ما كان بوسعي مما عشته حتى هذه اللحظة.

طارت الفكرة، وأعددتُ خططاً، خططاً جميلةً للغاية. لو أنني كنتُ سأصبح حرّاً لعدتُ إلى البيت، وكرّستُ وقتاً لأظهر لأهلي مدى حبّي لهم. أودّ أن أقوم بما كنتُ سأستطيع فعله ولم أفعله، أن أنهي ما بدأته وتركته في منتصف الطريق، أن أُكفِّر عن الإثم الذي اقترفته.

أودّ أن أمتلك كتباً، أقرأ فيها وأتعلّم منها. أعرف كلّ ما يمكن للمرء تعلّمه، وأعرف أنني لا أعرف شيئاً. أريد أن تمضي هذه اللحظة لأبدأ من جديد وأدرس وأكتسب معارف جديدة. وخاصّة أن أشرع بالكتابة. ولكن تحتاج الكتابة إلى الكثير من القراءة. حتى الأسابيع الأخيرة، كنتُ أعتقد أنني سأمتلك الوقت للمطالعة، ومن ثمّ سأشرع بالكتابة. الكتابة عن ماذا؟ لا أدري، ليست لدي فكرة عن ذلك. هذا وهمٌ أكثر من أن يكون مشروعاً.

ربّما سيكفي أقلّ من هذا بكثير. قد يكفي السير في الشارع. إن كنتُ أستطيع فعل ذلك فسأنظر بطريقة أخرى إلى المشهد والناس والأمكنة. لن أعدو، دون انتباه. سأتنبّه للتفاصيل. مع أنني أعرف المدينة جيّداً، أعلم أنّ ثمّة أمكنة فيها لم أذهب إليها أبداً، والآن يدفعني الفضول لمعرفتها.

هذا الوضع، هذا التعذيب، عابرٌ، ومن ثمّ سأعود إلى طبيعتي. ما هي الطبيعة «خاصّتي»؟ لا أدري، لم أطرح السؤال على نفسي، لم يمكنّي أن أطرحه على نفسي. ولكن لم يراود ذهني أنّ التعذيب والسجن سيدومان إلى الأبد، وأنّ المطاف سينتهي بي ذات يوم إلى أن أكتب عن كلّ هذا البؤس. لم أتصوّر حياتي من دون ما أنا مقدمٌ على عيشه، من دون السنوات الثلاث عشرة التي سأعيشها. وسأنتهي إلى أن أقول في نفسي، ليس مرّة واحدة فحسب

وإنّما غالباً وبيقين أوّليٍّ يتجاوز الأدب بما هو الفنّ الأقلّ أو الأكثر مهارةً المرتكز على نظم الكلمات، أنّه لو أُتيحت لي حياةٌ أخرى ما كنتُ لأختار حياتي هذه.

كما سيمكنني السفر والتعرّف على بلدانٍ أخرى، وعلى أناسٍ آخرين، واستئناف دروسي اللغوية. ها أنذا نهبٌ للهذيان، راحلٌ نحو جهاتٍ مجهولةٍ، ممدّد على فراشي. وأدرك أنني أهذي، ولكنني لا أريد الكفّ عن ذلك. لا أريد العودة إلى الزنزانة، في هذه الثكنة، إلى عذاب إدراكي أنّني أتسبّب بالألم لعائلتي، وأنني في الثالثة والعشرين من عمري، وأنني جاهلٌ، حيوانٌ مسكينٌ لا يعمل ولا يدرس ولا يتطوّر. حاولت أن أستمرّ في الاستغراق بأحلام اليقظة وأن أرحل وأحلّق، وأن لا أكون أنا للحظةٍ، وأن أؤمن بأنّ كلّ شيء عذبٌ ولطيف، وأنني في بيتي، أجلس بين الكتب منهمكاً بالدراسة والكتابة.

25

حينما تكون لدى الضبّاط لحظات فراغٍ، يكرّسونها لإيضاح نشاطهم والدفاع عنه.

إنّهم ليسوا محترفي التعذيب، وإنّما أشخاص كالآخرين، آباء وأبناء وإخوة.

لا ينكرون أنّ هناك بؤساً ومظالم. وسوف يصلحون كلّ ذلك في قادم الأيام.

وإنّ المسؤولين عن كلّ هذا هم ساسة البلاد، فهم جميعاً كذّابون ولصوص وفاسدون.

نحن وهُم جميعنا ضحايا النظام المشيَّد من قبل السياسيين.

التعذيب هو السلاح الوحيد ليحصلوا على المعلومات.

في كلِّ الحروب، هناك تعذيب، الخ.

ثمّ، في لحظاتٍ أخرى، في مساءٍ ما، يقدِّم الجلادون

جانباً فريداً من شخصيّتهم: إنّهم يحسدون السجناء. لأنّ الجلاد يعرف ضمناً أنّ ما يفعله لن يكون أبداً محلّ افتخار، ولن تكون له قيمة إنسانية، وثقافية، وأخلاقية، وأدبية. ربّما يمكنه الحصول على المعلومات التي يبحث عنها، وماذا بعد؟ قد يخيف جميع رجال ونساء هذه البلاد، في الشارع وفي المصنع وفي الجامعة. حتى في الليل، حينما يلجأون إلى بيوتهم وينامون، سيخافون من الجلاّد، وماذا بعد؟ هل سيشعر الجلاّد بالفخر لهذا؟ أبداً، على الإطلاق، حتى بعد ألف عام، لن يغامر بأن يروي لأطفاله، مفاخراً:

«كان هناك رجلٌ، امرأة، كانت لديهما معلومات، ولم يريدا أن يفشيا لي بها. كانا مقنّعين، مغلولي الأيدي خلف ظهريهما. كانا يقاومان. ولكنني أوصلتهما إلى أقصى حدٍّ، حطّمتهما، وأرهقتهما. جعلتهما يريان بأنّهما ليسا سوى قُمامة. جعلتهما يعرفان الموت تحت الماء، مراراً، وانتهيا بأن أعطياني تلك المعلومات.»

26

يتحدّث الجلاد، في تلك اللحظات، أثناء تلك الليالي، مخموراً بعض الشيء، ويظهر وجهاً آخر لحسده، للقيمة الزهيدة التي يحظى بها في نظره. يحسد السجين على أفكاره، وعلاقاته، والتزامه السياسي. يحسده على معارفه، وثقافته، والكتب التي قرأها. يحسد امرأته، السجينة هي الأخرى، أو المتخفّية.

ليس الحسد والبغضاء وحدهما ما يحرّكان الجلاّد. هناك أيضاً الأوامر، والتقيّد بالتراتبية وتربيته والدولة والمصالح الاقتصادية لأشخاصٍ آخرين. ولكن هنا أيضاً، وسط الحسد والبغضاء، وسط الرغبة، إذ لا يمكنه نيلها، على الأقلّ أن يجعل المعذَّب يشعر بأنّه لا قيمة له، يرى الجلاّد أسباباً لأن يذلَّ ضحيّته. هو لا يفصح عن ذلك، ولكنّ المعذَّب يدركه، ويستشعره في جسده.

27

كانت فكرة الموت، كحلٍّ لوضعنا الذي لا يُطاق، دائمة الحضور في ذهن كل منا. فكّرتُ في مخرجٍ: بما أنني، ولسوء الحظ، لن أموت بأزمة قلبية خلال التعذيب، ولن أُترك لأقضي غرقاً في البرميل، يمكنني محاولة الفرار وجعلهم يقتلونني. فكّرت في ذلك لثلاثة أيام. وقرّرت. سوف أفعل ذلك.

أثناء الجلسة القادمة، سأستسلم للغطس في البرميل لمرّةٍ أو مرّتين. عليّ أن أريهم بأنّهم ينتزعون المعلومات منّي بالتعذيب، وليس لأنني مهيّأٌ الآن للتعاون معهم.

حينما سحبوني من البرميل، عرضت عليهم أن أفشي لهم عن صلة وصل سيأتي للقائي. حدّدت المكان، في شارع مزدحم جدّاً، وحدّدت الزمان.

مَنْ هو، وما اسمه؟

قلتُ لهم إنّ اللقاء قد رتّب، ولكنني لا أدري من سيذهب إليه. في كلِّ الأحوال، إنّه شخصٌ لا أعرفه.

ما هي أوصافه؟

قلتُ إنني أجهل ذلك، ولكنني أعرف الرفيقة أو الرفيق الذي سيأتي إلى اللقاء.

لم يبدُ لي ذلك محكم الإعداد، ولكنّه كلّ ما أمكنني فعله، كلّ ما أسعفني به تفكيري.

لم أقل لهم إنّهم لو اصطحبوني فسأدلّهم عليه وإنّهم سيتمكّنون من توقيفه، لأنّ من شأن ذلك أن يجعل الشكّ يساورهم بأنني سأحاول الفرار. يجب أن يقترحوا هم ذلك. وحتى في هذه الحالة سيكون عليّ أن أبدي بعض الممانعة.

كفّوا عن تعذيبي، وهو من حيث المبدأ أفضل ممّا كانت عليه الحال فيما مضى. ولكنني أعرف أنّهم لو أدركوا بأنّ ما قلته عن لقاء في ذلك الشارع، ذلك اليوم، هو كذب واختلاف، فستكون العاقبة وخيمة عليّ.

اقتُدْتُ إلى زنزانتي.

بعد هنيهةٍ، صعد الكابتن المسؤول عنّي إليّ. وهو مغتاظٌ بعض الشيء، أو أنّه يتظاهر بذلك، لأنني لم أعطه هذه المعلومة من قبل.

هل أنا متأكّدٌ من أنّ هذا اللقاء سيحصل، وأنني لا أذهب بهم إلى هناك عبثاً؟

نعم، إنّه سيحصل، أؤكّد ذلك.

عليّ أن أنتبه جيّداً. إنّه يثق بي، كما ينبغي عليّ أن أعرف، ولكن إن لم يكن ذلك صحيحاً، فسأخسر كلّ الثقة التي حظيت بها.

ولكن كلا، إنّه صحيح، أقسم على ذلك.

وحينها جاء السؤال الذي كنتُ أتمنّاه:

هل أنا مستعد لأن أقودهم إلى لقائي وتحديد الرفيقة أو الرفيق الذي سيأتي؟

لزمتُ الصمت، متردّداً للحظة.

«إذاً، هذا ليس صحيحاً»، قال مسؤولي.

وكانت تلك هي اللحظة التي كنتُ أنتظرها. قلتُ له، متردّداً، بأنني مستعدٌّ للذهاب إلى هناك.

انصرف قائدي.

الآن سيأتي ما هو أسوأ. عليّ أن أتهيّأ للذهاب إلى ذلك الشارع وأن أجد حريّة كافية للحركة لأنطلق راكضاً، وليطلقوا النار عليّ، ويردوني قتيلاً.

بل شرعتُ أوهِم ذاتي بأنّي سأبدأ بالجري، سأجري، وأجري مسرعاً، ولن يلحقوا بي. لقد سبق وفكّرت إلى أين

سأذهب: إلى بيت صديقةٍ، سيّدة مسنّة، والدة صديقٍ. حاولت نسيان كلّ الأرقام الهاتفية، ولكنني احتفظتُ في ذاكرتي برقم تلك السيّدة. قد يمكنني نسيان كلّ شيء عدا ذلك الرقم. ولكن فيما لو نسيته، تخيّلت طريقةً لتركيبه. إنّها مجرّد ستّة أرقام، الأوّل والثالث والخامس هي مضاعف العدد اثنان. أمّا الثاني والرابع والسادس فهي العدد تسعة نفسه.

مرّت الساعات والأيام ولم يأخذوني إلى اللقاء. لن يكون بوسعي أن أُقتَل.

28

ذاكرة الأُذن مدهشة. طوال أشهر شتاء 1972، مرّ المئات من السجناء بالثكنة، وقد عُذِّب الجميع. أوقِفَتْ امرأة، بدت غير جديّة، لم تُعذّب إلا حينما يكون لدى الضبّاط فائضٌ من الوقت. أثناء ليلة هادئة، بدأنا نسمع صرخات تلك المرأة تمزّق الصمت. كانت ذات صوتٍ قويّ، من قاعة التعذيب، صعدت صرخاتها المدويّة، عبرت السلالم وعبرت الجدران واخترقت آذان السجناء. اقتادوا تلك المرأة لليلةٍ أو ليلتين في خلال أسبوع وعذّبوها.

وعندما تتطوّر بين السجين والجلاّد علاقة ارتباطٍ وتعارفٍ متبادلٍ، بل وثقةٍ، يمكن للسجين، الموجود منذ شهرين في زنزانته، أن يسمح لنفسه بتعليقات، خارج ما يربطه بجلاّده: أي المعلومات التي يريد الآخر الحصول عليها، والتي لا يريد هو أن يعطيها له.

تلك المرأة التي تصرخ بطريقة لم أكن لأصدّقها، والتي

لم يبدُ عليها أنّها تملك الكثير من المعلومات لتعطيها، جعلت سجينين أو ثلاثة، وأنا واحد منهم، يسألون أحياناً مسؤوليهم لماذا لا يُطلَق سراحها، إذ من الواضح أنّها لا تملك ما تقوله لهم، وربّما بها مسٌّ في عقلها. أجابني المسؤول بالنفي، وبأنّ هذا ليس صحيحاً. إنّه يعلم بأنّها تملك معلومات وأنّها تتظاهر بالجنون.

بعد بضعة أيام اختفت صرخات المرأة. ربّما أُطلِقَ سراحها، أو نُقِلَتْ، أو ربّما ماتت تحت التعذيب. لم أرها قط، لم أعرف اسمها، لم أعرف في أيٍّ عمرٍ كانت. ولكن، دون أن أدري ذلك، سيبقى دويّ صراخها يتردّد في رأسي، إلى الأبد. سمّيناها «المجنونة صاحبة الكلاب»، وبعد سنواتٍ عديدةٍ، بينما سنكون قد جلسنا متقابلين إلى مائدة عشاءٍ في ستوكهولم، سوف أعرفها من صوتها فحسب.

29

على الأرجح أنّ الجلاد يكوّن عن الكائن البشري تصوّراً يمكنه وحده بلوغه. لا بدّ أن يكون العقاب بالألم تجربة فريدة. لا بدّ لرؤية امرأةٍ أو رجلٍ، كان يعيش لحظة توقيفه حياةً طبيعية، وقد تحوّل إلى مزقة متألّمة، إلى لحمٍ مهانٍ يصرخ ويتوسّل زاحفاً، لا بدّ من إعطاء رؤية عن الكائن البشري لا تعطيها الحياة المجتمعية.

من غير الممكن على الإطلاق ألاّ يفكّر الجلاّد في تجاربه أثناء التعذيب أو بعده، حتى وإن كان ذلك بعد سنوات. لا ليقرّ بذنبه: يمكنه من وجهة نظره الخاصّة أن يبرِّر ما أقدم عليه، بل يمكنه الاقتناع بأنّه إذا كان ذلك ضرورياً لفعله من جديد. ما ليس بوسعه، هو أن لا يفكّر.

ربّما في اللحظة التي ينبغي أن يتّخذ فيها الجلاّد القرارات، ويقوم بالاعتقالات، ويحضّر للتعذيب، لا يطرح

على نفسه أسئلة ولا يعاني من الحاجة إلى أن يجيب لماذا، وما الجدوى من ذلك. ولكن سيكون عليه ذات يوم أن يفكّر حتى النهاية، وأن يصل إلى حيث لا أعذار أيديولوجية ولا سياسية ولا مهنية ولا شيء سواها. وحيداً مع ضميره، ذات يوم، أيُّ جواب سيعطيه الجلاّد؟

30

أعتقد أنّ كلّ جلاّد يطوّر مهارته، وله في ذلك تقنياته. يتعلّم استعمال الأدوات، والماء، والكهرباء، والدبّوس، ويتعلّم، كما نعلم، استخدام أيّة أداةٍ على مادته التي هي جسد المعذَّبين.

كان مسؤولي مختصّاً في استخدام البرميل. لا أظنّه كان يضربني. لستُ متيقّناً من ذلك، ولكنني أعلم أنّه لم يقدم على ما يجعلني متأكّداً من ذلك. ربّما لا يمكنه، أثناء الجلسات، الإحجام عن ضربي، بلكمةٍ أو ركلة. ولكن في تلك الحالات، لا أفلح في التحقّق من مَنْ يفعل ماذا. أنا واثقٌ من أنّ وسيلته هي البرميل. بالإضافة إلى ذلك، سأعلم بعد شهورٍ وسنوات أنّ لكلٍّ مركز اعتقالٍ منهجه الخاصّ في التعذيب.

هنا حيث أنا، ليس هناك دولاب، البرميل هو سيّد

الموقف. أحياناً، يقول ضابطٌ، بغية تخويفي، بأنّه سيجلب الدولاب، وحينها سأرى. فالبرميل لا يُساوي شيئاً مقارنةً بالدولاب، ولكن لم أرَ الدولاب أبداً، الأمر الذي جعلني لا أدري إن كان أفضل أم أسوأ من البرميل.

ولكن ها هي فكرة إضافة أداةٍ أخرى للبرميل تراود أحدهم. ربّما لأنّ البرميل متعبٌ، ويستلزم القوّة، ويبلّل أرضية قاعة التعذيب والضبّاط أنفسهم.

ذات ليلةٍ، لم يبدأ التعذيب في موعده. كان الضباط في الأسفل، تُسمَع أصواتهم، ولكن لم يكن هناك تعذيب. لا بدّ من الانتظار لمعرفة ماذا يفعلون. من الصعب النوم في هكذا حال، مع ذلك الشعور بالانتظار.

فجأةً، انفتح باب القاعةِ، وسُمِعَت أصواتٌ، وأعلن أحدهم:

«سأجلبه لكم.»

صعد اثنان منهم السلّم جرياً. دخلا زنزانتي. أنهضاني، صارخين، وأدارا وجهي إلى الحائط، وكبّلا يديّ خلف ظهري، وشرعا يدفعانني في الروّاق، ألقيا بي في قفص السلّم، تعثّرتُ، فرفعاني عن الأرض.

إنّها البداية، لم يحدث شيءٌ بعد. فالشتائم والصرخات والضربات الخفيفة كلّها أمورٌ يمكن تحمّلها. ولكن يجب

ألاّ نُظهر بأنّ ذلك لا يؤثّر فينا بشيء، ولا يؤلمنا. بل يجب أن نُريهم بأنّنا نخاف، ولا نتحمّل المزيد. وإلاّ سيستمرّ التليين، وسيختارون الوصول عنوةً إلى ما يهمّهم حقّاً، عبر التعذيب جدّياً.

31

ذات مرّة قيل لي في الأسفل بأنّني سأعرف هذه المرّة ما هو جيّد.

كان قائدي حاضراً أسمعه، ولكنّه لم يكن هو مَنْ يدير العملية.

لم تُطرَح عليّ أسئلة، وحدها الصرخات والتوبيخات والتهديدات كانت تتعالى.

أُمِرْتُ بأن أرفع قدمي اليمنى، فوضعتها على شيءٍ ما بدا لي وكأنّه قضيب سلّمٍ. فقيل لي أن أرفع الساق الأخرى.

وبما أنّني لم أرى شيئاً، لم أفهم ما يُراد منّي. كنتُ أعدم المهارة، وكدتُ أن أسقط، فساعدوني.

كانت ساقي الأخرى في وضعيةٍ وكأنّني أمتطي حصاناً.

ضحك أحدهم:

«ما هكذا يُمتَطى الحصان، يجب البدء بالساق اليسرى.»

لم يكن هناك غيري عديم المهارة، هم لم يجيدوا كيفية إرشادي إلى ما عليّ القيام به. نال الإجهاد منهم، وأثاروا حفيظتي.

أجلسوني وشعرتُ بقضيبٍ مسنونٍ بين ساقيّ، على الخصيتين والعُصعُص. فملتُ في الحال جانباً، على الرِّدف، ليكون ذلك أقلّ إيلاماً. فصرخوا بي أن أمتطي القضيب:

«على الإست، على الإست!»

تحرّكتُ وأذعنتُ لأمرهم، ولكنّ جسمي مال نحو الجانب الآخر. فضربني أحدهم بالدبّوس على فخذي الأيمن. آلمني ذلك. فاستقمتُ مفرشحاً على القضيب. وحينما تركتُ جسدي يميل نحو الجانب الآخر، ضربوني بالدبّوس على فخذي الأيسر، على قصبته الكبرى. بذلتُ جهداً وتركتُ القضيب ينغرز بين ردفيّ. لم أعد أتحرّك. سعت قدماي، دون إرادتي، إلى القضبان السفلية. وبلغتاها، واستندتا عليها ورفعتا جسمي.

فانهال دبّوسان في الوقت ذاته على عرقوبَيْ قدميّ. عليَّ أن أبقى مستنداً على القضيب النصفي الذي بين ساقيّ وحده. تُسمّى هذه الآلة الحمّالة. لم أكن أعرف. كانوا يجرّبونها معي، ويتعلّمون استخدامها.

لم يبق الجسم مستنداً على العُصْعُص، وتمايل.

فسندوني كي لا أقع. وبما أنّ يديّ مغلولتان خلف ظهري، تماسكتُ على القضيب الذي بين ساقيّ، ورفعتُ جسدي بعض الشيء، فخفّف ذلك من الألم.

أخذوا يهزّون الحمّالة، كما لو أنّها حصانٌ خشبي، إلى الأمام وإلى الخلف. أوجعني ذلك، فصرخت. فأضحكتهم تلك الآلة المستحدَثة. وصرخوا: أن أتكلّم، أن أتكلّم، أن أقول ما عليّ قوله.

فأجبتُ بالمزيد من الصراخ.

لم أشأ الكلام. أدركتُ أنّهم لا يجيدون استخدام الحمّالة وأنّهم يجرّبونها، وأردتُ أن أظهر لهم بأنّها لا تُحتَمَل، وأنّها تؤلم لدرجة لم يسعني الكلام حتى لو شئتُ ذلك.

فصرختُ بأعلى ما أوتيت من قوّة.

هذه الصرخة طبيعيّة، وليست كالنباح الذي يُطلقه السجين حينما يُسحَب من البرميل. صرختُ لأنّني تألّمت، ولكن أيضاً لأنني أردتُ تهدئة غلوائهم كي لا يطرحوا عليّ الأسئلة.

توقّفوا عن هزّ الحمّالة. واظبتُ على الصراخ. كانت الحمّالة تؤلم حتّى وهي ثابتة.

أخبروني بأنّني سأبقى هنا الليلة كلّها، إلى أن أقرّر البوح بما أعرف.

لا أعرف كم من الوقت مضى، عشر دقائق، ربع ساعةٍ. ساد الصمت. قد يُقال بأنني وحيد، ولكنني عرفتُ بأنّ أحداً ما يراقبني، ولأتيقّن من ذلك، ملتُ جانباً وأبعدتُ الإست عن القضيب.

سمعتُ في الحال صوتاً يأمرني بالبقاء كما يجب.

فعلتُ ذلك، ولكنني تركتُ جسمي يميل نحو الجانب الآخر. فتزامنت ضربة من الدبّوس على فخذي مع صرخةٍ عالية.

ركّزتُ جسمي اجتناباً للألم. فتركتُ القضيب ينغرز بقدر ما يتحمّله جسدي. أعرف أنني أتألّم وأنّني سأتألّم أكثر فيما بعد، ولكن حينها بدت منطقة جسمي وكأنّها مخدّرة. إنّ ألماً شديداً للغاية يسبّب الخدر، ولا يعود المرء يحسُّ بشيء. مع ذلك عليّ أن أُظهر بأنّني أتألّم، وأنّ الحمّالة أسوأ من البرميل، الأمر الذي لم يكن كذلك حقّاً، وأن أُظهر لهم في الوقت ذاته بأنّه، ورغم كلّ هذا الألم، ليس لديّ ما أقوله لهم. وبالتالي، إذا لم يكن لديّ ما أقوله على الحمّالة، فلن يكون لديّ ما أقوله في البرميل.

32

لا أدري كم من الوقت مضى، ساعة، ساعتان. دخل أناسٌ القاعة، وسأل أحدهم:

«وماذا بعد؟»

لم أسمع الجواب. افترضتُ أنّ الضبّاط قد تركوا جندياً مناوباً أو اثنين وذهبوا يرتاحون، بانتظار نتيجة الآلة الجديدة.

تخيّلتُ أنّ الجندي هزّ كتفيه وأومأ برأسه أن «كلاّ، لا شيء».

سُمِع صوتُ قائد الثُكنةِ. إنّه مقدّمٌ يتكلّم أحياناً ويُعطي الأوامر، ويُلقي خطباً على السجناء، وتنتابه نوباتٌ عصبية أثناء جلسات التعذيب.

قال لي ضابطٌ إنّ قائد الثُكنة قد ضاق ذرعاً، منذ بضعة أيام، بما يحدث عنده هنا، وما يقوم به أعوانه، وهو يتناول المهدّئات لتحمّل ذلك.

تبادل الحاضرون وجهات نظرهم.

ففهمتُ أنّ أحدهم اقترح الحمّالة التي رآها تُستخدَم في ثُكنات أخرى، حيث كانت تعطي نتائج جيّدة. ولكنّ لأهل هذه الثُكنة اختصاصهم، البرميل، وهم لا يثقون بهذه الآلة الجديدة، أو أنّهم لا يجيدون استخدامها.

سمعتُ حججاً ضدّ الحمّالة. تقول الأولى: «لا تفيد هذه الوسيلة في شيء. لا بدّ من ترك الشخص الليلة كلّها، وانتظار أن تأتيه الرغبة في أن يقول شيئاً.»

وتقول أخرى: «هذا لا يؤثّر فيهم بشيء، يمكنهم أن يتحمّلوا لأسابيع الجلوس فوقها.»

علا صوتٌ آخر، عمليّ، معلناً أنّ الحمّالة قاب قوسين أو أدنى من أن تنكسر، وأنّه سينبغي عليه قضاء وقته في إصلاحها.

حينها قال القائد الأعلى، المقدّم:

«خذوه.»

رُفعتُ عن الحمّالة. فشعرتُ بألم شديد، بالكاد تمكّنتُ من السير. أعانوني على صعود السلّم.

ما إن أصبحتُ في الطابق العلوي، حتى أمر قائدي بأنّ تقيّد يداي إلى الأمام.

أراد أن يقول بذلك إنّه لم يكن مقتنعاً بفضائل الحمّالة.

أو إنّه لم يرَ من المناسب تدشينها معي. وعلى أيّة حال، بوضع الأغلال من الأمام، تحسّنت الحياة بطريقة مدهشة.

وصلتُ إلى زنزانتي، فدُفعتُ إلى حشيّتي. استلقيتُ كيفما كان، والتويتُ على نفسي. دسستُ يديّ بين ساقيّ، وأمسكتُ بخصيتيّ وتحسّستُ شرجي، وأردتُ الوصول إلى عصعصي، كنتُ أنشد حرارةً، حرارة، هناك، حرارة تعيد التئام عظامي التي انفرجت عن بعضها.

تألّمتُ لأسابيع، وأنا أمشي منفرج الساقين. ولم نرَ الحمّالة بعد ذلك.

33

جُلِبَت لي وجبتي، فجلستُ على حشيّتي، وتناولتها وقد رُفِع عنّي القناع قليلاً. دخل مسؤولي. رميتُ صحني أرضاً ونهضت.

كانت حشيّتي مجرّد بطّانية، وهذا كلّ ما أملك، علاوة على دلو ماءٍ في ركنٍ من زنزانتي. سألني مسؤولي عن شأن الدلو هنا. قلتُ له بأنّني أستخدمه كمغسلة أحياناً. لم يسألني كيف حظيتُ بهذا الترف. لا أحد لديه دلو في هذا الحبس. كان قائدي متسامحاً معي، ولم يطلب انتزاعه منّي رغم أنّه يدري أن الأمر غير عاديّ.

قال لي بأنّه مرّ أمام منزل أهلي ليرى أين وكيف يعيشون. لا أعتقد أنّه ذهب إلى هناك لمجرّد الفضول، ولا يهمّني إن كان قد رآهم أم لا. سيكذب عليّ، ولكن مع كلّ هذا سألته عن حال عائلتي.

الجميع بخير، بيد أنّه لا يستطيع أن يخبرني المزيد عنهم.

استغلّ ذلك ليستجوبني عن أمورٍ لا يدري إن كنتُ أعرفها، ولكنّه بحاجةٍ لأن يعرفها لأنّه كُلِّف بالتقصّي عنها.

إنّه يعلم بأنّني لن أخبره بشيء حتى وإن كنتُ أعرفه، على الأقل بهذه الطريقة، مجّاناً، بلا تعذيب.

لم يكن ذلك استجواباً، وإنّما مجرّد تعليقٍ على العمل الذي أُوكِل إليه، وكأنّنا صديقين، أو زميلَي عمل، أو جارين.

حذّرني، وهو يغادر، ملمّحاً بأنني إن كنتُ أعرف ما سألني عنه ولم أخبره به، سيعتبر ذلك إساءة له، ولن يكون بوسعه سوى أن يسحب منّي ثقته.

في الواقع، عرفتُ تماماً ما سألني عنه، ووددتُ أن أعرف إلى أيّة درجةٍ يلمُّ بالوقائع التي يحقّق حولها، ولكنّه لم يعطني أيّة معلومةٍ إضافية.

شغلني دلوي كثيراً. لقد نلتُ عذاباً أليماً لاقتنائه. ذات ليلةٍ، بعد جلسةٍ من التعذيب بالبرميل، رثى جنديٌّ لحالي. سمح لي أن أتبوّل، وقدّم لي سيجارةً. استغللتُ ذلك لأطلب منه ماءً في دلوٍ كان موجوداً في المغاسل لأغتسل به. أعطاني إياه دون تمنّعٍ، مع أنّني كنتُ مبتلاً جدّاً، وربّما أدرك أنّ الماء هو أقلّ ما كنتُ أحتاج إليه.

34

لعدّة ليالٍ متتالية، جرى التعذيب بعنفٍ شديد. سُمِعَ عويل المعذَّبين، وصرخات الضبّاط. كان الجنود منتشرين في الممرّات، لا يتكلّمون ولا يستمعون إلى المذياع. وأنا على حشيّتي، ولكنني لم أنم.

ساد الصمتُ للحظةٍ، ثم سُمِعَ صوتٌ على السلّم يلهجُ باسمي المستعار.

«أنزلوه»

انتصبتُ وثْباً قبل أن يوقفوني ضرباً. فتح الجنود الباب وأنزلوني، والأصفاد على بطني.

دخلتُ وأدركتُ أنّ قاعة التعذيب ممتلئة. ساد الصمت، سيتكلّم قائد الثُّكنة، هذا المقدّم صاحب الخطب الطنّانة، والنوبات العصبية، والمهدِّئات. كان في الجوِّ شيءٌ ما لا أدري كيف أصفه. سأصف الجوّ بالاحتفالي، مع أنّ هذه الكلمة لا تعبِّر عن الواقع.

لم يعرف المقدّم من أين يبدأ. تلعثم. اقترب منّي، فشعرتُ بحرارة جسمه القريب من جسمي. لم أستطع تجنّب خطابه، الوجيز هذه المرّة.

قال ما يُلخَّص بالتالي: لطالما لعبوا معي لعباً شريفاً. كانوا قساةً ولكنّهم شرفاء وصادقين. أمّا أنا، فعلى العكس من ذلك، كاذبٌ وابن عاهرة. لقد كذبتُ عليهم طوال الوقت. والآن انتهى ذلك. سيكون الأمر مرعباً بالنسبة لي، وسأرى ذلك.

لم أعرف ما عَرَفه عنّي، ولكنّني تخيّلتُ الأسوأ. ولكن قد يكون الأمر مجرّد حماقة. بعد أسابيع من الاستجواب، عرفتُ بأنّه يمكن أن يحدث كلّ شيء، ما هو هامٌّ بالنسبة لهم ليس كذلك بالنسبة لي على الإطلاق، وأحياناً على العكس من ذلك تماماً.

أنهى المقدّم خطابه متلعثماً. قائلاً إنني بذيءٌ لأنّني خدعتهم، في حين أنّهم كانوا يتصرّفون كرجالٍ صادقين في وعدهم.

لا أدري إن كنتُ محقّاً، ولكنّني، حتى دون أن أراه أبداً، وفقط لمجرّد سماعه وهو يتكلّم طوال تلك الأسابيع، تكوّنت عندي فكرة أنّ هذا المقدّم غبيّ. كما أنّني، في أوج الآلام في مملكة الدبّوس تلك، كوّنتُ فكرة أنّه علاوة على غبائه هو جبان. وأينما كان يعيش، إن كان لا يزال يحيا،

فسيكون قائد الثُّكنة على حاله إلى الآن، متشدّقٌ، غبيٌّ ونذل.

لم تؤثّر فيّ شتائم المقدّم ولا غيره. أردتُ الذهاب مباشرة إلى لبّ الموضوع، أن أعرف ذلك الشيء الجديد الذي عرفوه عنّي.

أحسستُ بأنّني وسط دائرة من الضبّاط، أو نصف دائرة. شعرتُ برائحة الأجساد، رائحة العرق والتبغ المنبعثة منهم.

لم أكن قد سمعتُ صوت قائدي بعد، مرجعي في كلّ شيء، ولكنّني افترضتُ أنّه حاضرٌ لأنّ صوته كان يُسمَع وكذلك صرخاته حينما كنتُ في الطابق العلوي.

تيقّنتُ من حضوره لأنّه كلّمني.

إنّه إلى جانبي.

يُريدني أن أخلع حذائي.

الآن عرفتُ ما عرفوه. إنّهم يعلمون أنّ ذلك شنيع، ولكن رغم كلّ شيء سأحاول أن أتصرّف بحيث لا يتأكّدون من ذلك بأنفسهم.

35

انحنيت، وبدأت بالقدم اليسرى.

أمرني قائدي أن أخلع جوربَيّ أيضاً.

خلعتُ حذائي وجوربي من قدمي اليسرى. ثمّ اليمنى.

حينما فرغت من ذلك، مكثتُ مقرفصاً، لأخفي ما لا أريد أن يروه.

أمروني أن أنهض. ثم أن أستدير. قال أحدهم إنّه لا يرى أيَّ شيءٍ غير طبيعي. فانحنى العديد منهم من حولي.

طلب أحدهم أن أرفع قدمَيّ.

فامتثلت للأمر، رافعاً قدمي اليسرى أوّلاً، ومن ثمّ اليمنى.

«ها هي.»

وشعرتُ بالضربة التي سحقت قدمي اليمنى. انهالوا عليّ ضرباً ودوساً بالأقدام، فقفزت وسقطت، خُرتُ على الأرض وضربوني.

«ها هي» تعني أنّهم رأوا جراحي. قبل سبعة أشهر أُصبتُ بطلقةٍ في كلتا قدمَيّ. تمكّنتُ من الفرار رغم كلّ شيء. وعولِجتُ في مستشفى سرّي. التهبت قدمي اليمنى أوّلاً، ثمّ اليسرى، وفيما بعد، اليمنى مرّة أخرى. أُجريت لي أربع عملياتٍ جراحية، آخرها قبل توقيفي ببضعة أسابيع. حينما اعتُقِلت، كان جُرحا قدمي اليمنى لا يزالان مفتوحين، فتحة ولوج الطلقة وفتحة خروجها. لم يُدركوا أنّني أعرُج إخفاءً لذلك الأمر، وتجنّباً لأسئلتهم. كما أنّني لم أجد كثير مشقّةٍ في إخفاء ذلك: لم يشاهدوني قط أمشي على نحوٍ طبيعي، حيث أكون باستمرار مقنّعاً، مكبّلاً، مدفوعاً بقوّة.

وبما أنّهم لم يشاهدوني أمشي على نحوٍ طبيعيٍّ، توقّفتُ عن الانشغال بعرجي، بل على العكس من ذلك، حاولتُ التصرّف بحيث لا أُصاب بالالتهاب من جديد. بدأت بسرقة لوح صابونٍ كنتُ قد وجدته في المغاسل. ثم اقتنيت دلو الماء ذاك بفضل الجنديّ. كنتُ أستيقظ نحو الساعة الخامسة أو السادسة من كلِّ صباح، حينما يكون الجميع مرهَقين ولا أحد يراقب الزنازين، فأغسل قدمي، وأضغط على فتحتي جرحيّ لكي تنزّا قيحاً.

لقد اكتشفوا المستشفى الذي عولِجتُ فيه، وحصلوا على العصا التي كنتُ أستخدمها، والتي كانت عصا مكنسةٍ.

لم تكن بي حاجة حتّى للاعتراف بأنّني قد جُرِحت،
وأنّني لا أزال جريحاً، لقد شاهدوا جراحي.
أنا، جريحٌ، وقائدي مُهان.

36

أصعدوني من جديد إلى زنزانتي، والغريب أنّه لم يكن هناك انتقام. افترشتُ حشيّتي وشرعتُ أمسّد قدمَي. كانت أصابعي قد سُحِقَت تقريباً تحت الضربات. ولكنني وجدتُ في ذلك فائدة: فالآن، وإذ لم أعد بحاجة لإخفاء جراحي، يمكنني طلب المعالجة الطبية.

في اليوم التالي، صعد قائدي ليقابلني. كان بادي السخط مغتاظاً، لأنّني لم أخبره بأنّني كنتُ جريحاً.

تكلّم على نحوٍ متواصل.

لم أتفوّه بكلمة.

لو كنتُ قد أخبرتهم بالأمر عند توقيفي لكانوا عالجوني عند طبيبٍ.

هل تشارف جراحي على الشفاء؟

ليس تماماً.

لاحظتُ أن جوابي لا يهمّه.

يدفعه الفضول إلى أن يعرف كيف تدبّرتُ أمري طوال أسابيع ولم تلتهب قدمي.

الأمر سيّان عندي الآن أن عرف ذلك، وأشرت له إلى الدلو بإيماءةٍ من رأسي.

ساد الصمت.

وفي الحال، خشيتُ من أن ينتزعه منّي. ربّما كان من الأفضل لو أنّني لم أقل شيئاً.

آه! لقد كان من أجل ذلك! وركل الدلو.

أخفيتُ الصابون تحت حشيّتي بعد لفّه بقطعة من البلاستيك.

انصرف. عاد. كان يبدو عليه أنّه يريد إخباري بشيءٍ ما ولكنّه لا يدري كيف. أو ربّما لا، قد يكون تأثّر لجراحي، لأنّني آثرتُ ألاّ أقول شيئاً وأن أتحمّل كلَّ شيءٍ وحدي. لا أدري. لم أتمكّن من قراءة ما يرتسم على وجهه، المحجوب عنّي. حينما تكلّمنا، نظرتُ من تحت قناعي، ورأيتُ جزمته. في كلِّ حالٍ، آثرتُ ألاّ أتساءل عمّا لحق به. أردتُ بدوري أن أخبره شيئاً ما، الفكرة التي راودتني مساء البارحة. عليّ أن أتحقّق إن كان ساخطاً فقط أم أنّه غاضبٌ أيضاً. ركّزتُ تفكيري على هذه النقطة. لا أعلم في أيّ وضعٍ وجدتُ نفسي بالنسبة إليه. ولكن يهمّني أن أنال ما سأطلّبه منه لا أن يرفضه.

هذه المرّة، انصرف فعلاً.

كان لا يزال في الممرّ حينما حسمتُ أمري، وناديته.

عاد.

«ماذا هناك؟»

«هلاّ تكرّمتَ بعرضي على طبيب؟»

صمت. استغرق في التفكير.

سيبذل ما بوسعه.

مرّت الأيام ولم يأتِ الطبيب.

واظبتُ على غسل قدمي. مع أنني لم أشأ أن يروني، فبعد الآن ليس هناك ما هو أخطر من مباغتتي وأنا أفعل ذلك.

37

ها قد مرّت أسابيع عدّة ونحن نُستجوَب حول موضوع فرانسيسكو. نحن سبعة في الزنازين ونعرف جميعاً مَنْ هو فرانسيسكو. فرانسيسكو اسمٌ مستعار، لا أعلم إن كان أحدٌ هنا يعرف اسمه الحقيقي. على الأرجح هناك من يعرف ذلك، أمّا أنا فأجهله. كما أنني لا أعلم أين يوجد الآن، ولا أعرف سبيلاً إلى تحديد مكانه. وهذا منحني بعض السكينة: فلن ينجحوا قط في العثور عليه من خلالي.

هذه ليلة غريبة. لا تعذيب فيها. اعتدنا أن نراقب الزمن. لا نعرف كم تكون الساعة، ولكن استولت علينا فكرة أنّه قد آن أوان الشروع في التعذيب. ربّما سيبدأون في غضون لحظةٍ وعلينا أن نتهيّأ لذلك. مضى الوقت ولم يبدأ التعذيب. كان ذلك يشغل بالنا. حينما يبدأ التعذيب تُسمع صرخات المعذَّبين، وتعلوها صرخات الضبّاط. هذا هو الوضع الطبيعي. وعندما يجري التعذيب، ويكون السجين على حشيّته، ينتهي به الأمر بالخلود إلى النوم.

وعلى النقيض من ذلك، يكون الصمت نذير شؤم، ويعني أنّه يجري الإعداد لشيءٍ مختلفٍ، لن يكون خيراً. هنا، لا يمكن أن يكون ما هو مختلف خيراً.

ماد الصمتُ طوال الليلة. وحدها أصوات سعال الجنود المناوبين، الذين كانوا يستمعون إلى المذياع، وصيحاتهم ملأت الأمكنة. قد يعني هذا أنّهم قد خرجوا لعمليّة ضخمة، واصطحبوا عدداً كبيراً من العناصر. كما يمكن لهذا أن يدلّ على أمورٍ أخرى كثيرة، كأن يكونوا مشغولين باختراعٍ ما ومنهمكين في السعي إلى إيجاد جوابٍ. انتهى بي الأمر بالخلود إلى النوم.

عند الفجر، دخل مسؤولي زنزانتي. أيقظني وقادني، مقنّعاً، عبر الدَّرَج حتّى الطابق السفلي. كان الهدوء يعمّ كلّ شيء. أدركتُ، وأنا أنزل، أنّ مركبة تُصفّ الآن في الأسفل. فافترضتُ، مع اللطف الذي عامَلني به قائدي، وهدير المحرّك، أنّه سيتمّ نقلي. ولكنْ ثمّة أمرٌ غريب: تُرِكَت قيودي على بطني، ولم يضعها خلف ظهري. لا نقل مع قيودٍ إلى الأمام، ولا حتّى داخل الشُكنة. هل سيخرجونني ليقتلوني؟ هذا احتمالٌ وارد. لا أعلم إن كان هذا قد حصل من قبل، إن كانوا قد اقتادوا أحداً ما وقتلوه في مكانٍ ما، ولكن غالباً ما فكّرت أنّهم سيخرجوننا ذات ليلةٍ من هنا ويقتلوننا في حفرةٍ ما.

تبيّن لي أنّ الفكرة لا تخيفني. وهذا مردّه ليس للشجاعة، وإنّما لفقدان الإحساس. أنا في الثالثة والعشرين من عمري، سيتألّم والداي لفقد ابنهم، ثمّة الكثير من الأشياء التي أودّ التكلّم بخصوصها معهما، تلك الأشياء التي يكتشفها المرء أثناء انتقاله من المراهقة إلى سنّ الرشد ولا يجد الوقت أبداً ليخبر والديه بها. وهناك أختي، الطفلة التي يلزمها الكثير لتتعلّمه. تستبدّ بي الرغبة في الحديث إليها، وأن أكون إلى جانبها وأراها تبلغ سن الرشد. سوف أموت دون أن ألتقي بهم، وسوف يتعذّبون بسببي. وحده هذا ما يحزنني.

38

عندما وصلنا إلى أسفل الدَّرَج، جعلني الكابتن أعبر مسافة المترين التي كانت تفصلنا عن الباب وحينها توقّفت المركبة تماماً. من خلال هدير المحرّك، أدركتُ أنّها ليست شاحنة كبيرة، وإنّما مركبة صغيرة.

أحسستُ أنّ أحداً ما فتح الباب الخلفي للسيارة المذكورة وهو ما أكّد لي بأنّها شاحنة صغيرة. أرغمني الكابتن على التقدّم فارتطمت قصبة فخذي بواقية المركبة. ظننتُ أنّه يريد أن يُصعدني إلى المركبة ورفعتُ قدمي خافضاً رأسي اتّقاءً للارتطام بسقفها. حينها رفع الكابتن قناعي واكتشفتُ أنّه لا يريدني أن أصعد، بل أن أنظر وأرى.

على مقربة أربعين سنتمتراً رأيتُ وجه فرانسيسكو، الذي افترش أرضية الشاحنة، شاحباً للغاية، ذابل العينين المزرقّتين، وقد غطّى غطاءٌ ظهره وساعديه.

لم أُرد أن يُدرك الكابتن أنني أعرف مَنْ يكون هذا الرجل. نظرتُ إلى عينيه محاولاً أن أحزر شيئاً ما، وأن أخبره بأنّني لا أعرفه، وأنني لا أجهل مَنْ يكون هذا الرجل فحسب، بل أيضاً لا أدري مَنْ يكون فرانسيسكو.

كانت أنظار فرانسيسكو شاخصة إليَّ. لم يتكلّم، لم ترف له جفن، لم يغمض عينيه. لم يومئ لي بأن أنتظر. قلتُ في نفسي لقد أوسعوه ضرباً تحت التعذيب، ولم يعد يحتمل المزيد منه. كلّ هذا حدث في غضون ثوانٍ.

سألني قائدي إن كنتُ أعرف مَنْ يكون هذا الرجل. اعتقدتُ أنّه ما لم يخبرهم فرانسيسكو مَنْ يكون، بعد تحمّل كلّ هذا العذاب، فليس من حقّي أن أعترف وأخبرهم، دون تعذيبٍ، بأنّه الرجل الذين يبحثون عنه منذ أسابيع. شعرتُ بأنّه، حتى وإن نجحوا في التعرّف إليه، عليَّ أن أدع نفسي أتعذّب عوض الاعتراف بأنّ هذا هو فرانسيسكو.

خلال تلك الثواني القليلة، مع الجسد الهزيل في الشاحنة، كان عليّ أن أتخيّل كلّ شيء وأجد جواباً، استجمعتُ شيئاً من شجاعتي وقلتُ للكابتن بأنّني لا أعرف مَنْ يكون.

في تلك اللحظة، تحرّك الجندي الجالس في المقعد الأمامي، واحتكّ مرفقه بظهر فرانسيسكو. فانزلق الجسد

على جنبه وشاهدتُ دماً سائلاً من رقبته على عنقه. ففهمتُ للتوّ أنّ شحوب فرانسيسكو هو شحوب الموت.

«هذا لا يهمّ، نحن نعرف مَنْ يكون. وأنت كذلك. إنّه فرانسيسكو.»

غَضِبَ الكابتن. دسّ يده في قناعي من الخلف وشدّه على وجهي وعنقي، وجعلني أصعد الدَرَج راكضاً. لم أستطع التنفّس، فتعثّرتُ وسقطت. رفعني قائدي من قناعي، وكأنّه يدلّيني، فشعرتُ بالاختناق. حينما وصلنا إلى الطابق الأوّل، طرحني أرضاً وطلب من الجنود أن يعاقبوني «بالوقوف على قدمٍ واحدة»:

«لا ماء ولا مغاسل ولا أيّ شيء لهذا، إلى حين صدور أمرٍ جديد. مفهوم؟»

«مفهوم، سيّدي.»

39

فيما بعد، في زنزانتي، وإلى هذا اليوم، بعد ما يقارب ثلاثين عاماً، سأبقى أسأل نفسي تُرى في أيّة لحظةٍ قلت للكابتن بأنّني لم أكن أعرف مَنْ كان ذلك الرجل الذي عُرِضَ أمامي. لا أدري إن أجبته قبل أو بعد معرفتي بأنّه كان ميّتاً. وددتُ فعل ذلك قبل أن أرى بأنّهم كانوا قد قتلوه. قبل، وليس بعد. لو أجبتهم قبلَ، معتقداً بأنّه كان لا يزال على قيد الحياة، لكان الأمر وكأنّني قد قلتُ له:

«فرانسيسكو، لن أشِيَ بكَ. أعدُك على الأقلّ بأنّني لن أُسلِّمك مجاناً. سيكون ذلك تحت التعذيب، مهما حصل سيكون ذلك تحت التعذيب.»

ولكنني لا أعرف في أيّة لحظةٍ أجبت الكابتن.

لن أعرف ذلك أبداً.

40

ذات صباح، أيقظونا قبل الموعد وقدّموا لنا فطورنا. ثمّ أحكموا أقنعتنا، ورمونا في أرضية شاحنة للجيش وأخرجونا من الثُّكنةِ. شاهدنا عدّة مركبات عسكرية خلفنا. وعلى الأرجح كان هناك بعضها أمامنا.

مع أنّ العسكريين اعتقدوا أنّني لا أعرف أين يقتادونني، عندما اعتقلوني، فقد استطعتُ، من أرضية الشاحنة الصغيرة، أن أتتبّع بمخيّلتي الشوارع التي كنتُ أمرّ فيها وأعرف في أيِّ ثُكنةٍ نحن. الآن، وأنا مقنّعٌ، مفترشاً أرضية الشاحنة، يتابع ذهني الخطّ البياني. في لحظةٍ ما، تُهتُ ولم أعد أدري من أين نمرّ. نزلت الحافلة سريعاً إلى منحدرٍ هاوٍ. حينما توقّفت الشاحنة وأُنزِلنا، وجدنا أنفسنا في سراديب مديرية الشرطة. لقد سبق لي أن كنتُ هنا، حينما اعتُقِلتُ للمرّة الأولى، قبل عامين.

لم ندرِ لماذا جُلِبنا إلى هنا. وزّع ضابط الخدمة

عناصره. رُفِعت عنّا أقنعتنا وسلكنا ممرّات كالمتاهة. يتقدّمنا ضابط، ومن خلفنا ضابط، وينتشرُ الجنود المسلّحين على الجانبين. يحاولون أن يمنعوا رجال الشرطة في زيّهم المدني من ضربنا. حسناً فعلوا. فأمام كلِّ مكتبٍ، وعلى كلِّ بابٍ، كان رجال شرطةٍ يظهرون ويشتموننا ويرغبون في ضربنا، ويدعون إلى قتلنا.

وصلنا إلى مكانٍ لم آتِ إليه أبداً. إنّها قاعة المرايا. إنّها قاعة طويلة، أحد جدرانها الجانبية مرآة. يُمرَّر السجناء من أمامها، ومَنْ يكون في الجانب الآخر؟ رجالُ شرطة، ومتعاونون مع الشرطة على الأرجح: مُخبِرون، سائقو سيارات أجرة، نُدل مقاهٍ، أصحاب أكشاك وفنادق ونُزل. سيتذكّرون هذه الوجوه إن عُدنا ذات يوم إلى الشارع. سيتمكّنون من التعرّف إلينا والإخبار عنّا. تقوم الشرطة في العالم بأسره بهذه العملية.

بدأ الموكب. يُدفع أحد السجناء للسير ويُعلِم الكابتن الذي قاد عملية النقل من الثُّكنة إلى هنا بصوتٍ جهوريٍّ، متباهياً، أولئك الواقفين في الجانب الآخر من المرآة.

السجينَ الفلاني، عمره، طوله، تهمته، إلخ.

حينما حان دوري، أعلن الضابط، علاوةً على التفاصيل المشتركة:

«هذا الشخص يَعرج. من جرّاء طلقةٍ تلقّاها في قدمه.»

أدركتُ الآن أنّني أعرُج. بما أنّني لم أمشِ منذ شهور، كنتُ أجهل أنّني لم أكن أستطيع السير إلاّ بمشقّة. شعرتُ أنني لستُ «أعرجَ»، وأنّ ذلك سيزول. بمرور الأشهر، سوف أتأكّد أنّ الأمر ليس كذلك، وأنني لا أستطيع تحريك ثلاثٍ من أصابع قدمي اليمنى، وهذا ما يجعلني أمشي بمشقّةٍ. وسوف أكرّس ساعاتٍ عديدة طوال عامين لكي أتمرّن على السير بشكلٍ سليم. لا يُلحَظ ذلك، ولكنّني لا زلتُ، إلى اليوم، عندما يكون الجوّ بارداً، أعرج في الصباح، عند استيقاظي.

41

لساعاتٍ، مرّرونا أرتالاً أمام المرايا. فجأةً، أُوقِفَ ذلك، ووضِعْنا في مكانٍ معتم كريه الرائحة، وهو رواقٌ لا يقودونا إلى أيِّ مكان، أو أنّه مسدود. استرخى الجنود الذين كانوا يحرسوننا وابتعدوا عنّا بضعة أمتارٍ ليدخّنوا، وليذهبوا إلى المراحيض. فانسلّ أربعة أو خمسة رجالٍ من الشرطة إلى الرواق وانهالوا علينا ضرباً. سقطنا أرضاً. وساد صخبٌ اختلط فيه أنين السجناء بشتائم رجال الشرطة. تنبّه الجنود لذلك فجاؤوا وطردوا رجال الشرطة. تكرّر المشهد طوال النهار، عند كلِّ توقّفٍ. ومع أنّ الجنود متيّقظون فإنّ رجل شرطةٍ بالزيّ المدني ينسلُّ فجأةً إلى الرواق ويضرب مَنْ يقع تحت يديه.

ذهب ضبّاط الجيش لتناول الغداء. احتجتُ إلى أن أتبوّل. طلبتُ من الجنود، وأنا مكبّل اليدين خلف ظهري، فبحثوا عن مفاتيح القيود. كان الضبّاط قد أخذوها معهم.

لا ينبغي حتّى أن أحلم بأن يقرّر الرقيب المناوب الذهاب في طلب المفاتيح منهم. كدتُ أتبوّل على نفسي، وبذلتُ جهداً كبيراً لأتمالك نفسي أكثر.

اقترب جنديٌّ منّي وأخبرني أنّه مستعدٌّ لمساعدتي إن أردت.

فوافقت.

سِرْنا لبضعة أمتار. انتابني الخوف قليلاً، ربّما يريد أن يسلّمني لرجال الشرطة المدنيين، لكي يضربوني للتسلية. ولكنني لم أعد أتحمّل أكثر، وسأتبوّل على نفسي. فجازفت.

قادني الجندي إلى المراحيض. دخلنا. كان هذا الموقف عسيراً لكِلينا. لم أعرف ماذا أقول له، ولا ما هو التصرّف المناسب. وهو في الموقف ذاته.

فاتّخذ قراره. أسند سلاحه إلى الحائط، وانحنى أمامي، وفتح فُتحةَ سروالي، وأخرج عضوي.

تبوّلتُ بلذّة، وبخجلٍ، منّي ومن الجندي. حينما انتهيتُ من ذلك، كنتُ في حالةٍ أسوأ من ذي قبل، ففُتحة السروال مفتوحة تفضح عورتي. نظرتُ إلى الجندي. ضحك بنزقِ طفلٍ. وضحكتُ بدوري، بنزقِ طفل. انحنى وأعاد عضوي إلى داخل سروالي، وأغلق فتحته. تبادلنا

النظرات. تأثّرت لما قام به أيما تأثير. أردتُ أن أعبّر له عن ذلك. فخانتني الكلمات.

«شكراً.»

«عفواً.»

وددتُ أن أقول له شيئاً آخرَ. لم أعرف ما هو.

أعادني إلى مكاني.

42

تشرين الأوّل 1972. مضى على اعتقالي ما يقارب خمسة أشهر. ذات يوم قُدِّمتُ إلى المحكمة العسكرية في قاعدة بحرية. لم يكن القاضي حاضراً، وإنّما موظّف صغير، ضخمٌ، وجذّاب. كان بحوزته المحضر المحرّر في الثُّكنةِ. طرح عليّ أسئلة أخرى ثانوية، لم تثر ردودي عليها اهتمامه. وجعلني أوقّع على ورقةٍ.

طوال عشرة أعوام، سأذهبّ كلّ سنةٍ مرّة أو مرّتين إلى المحكمة العسكرية. ولم أهتمّ أبداً بما قيل لي، وبما وقّعتُ عليه. ودائماً وقّعت، باستثناء مرّة واحدة، حينما أبلغوني بالحُكم الصادر بحقّي. طلبتُ الحديث إلى المحامي الموكّل بالدفاع عنّي. وهو عقيدٌ، محام معيّن من قبل المحكمة لم أرَه أبداً.

أُخبرتُ بأنّه اتّصل وقال بأنّه لا يستطيع المجيء.

«إذاً لا أوقّع.»

فقال عقيدٌ إنّ الأمر سيّان بالنسبة له. يكفي أنّهم سيوقّعون.

كُبِّلَت يداي إلى خلف ظهري، واقْتُدْتُ إلى بابٍ، ودُفعتُ بعنف. في اللحظة التي كان فيها رأسي سيرتطم بقوّة بالجدار، نهض سجينان، كانا جالسين مكبّلين، وتدخّلا لتجنيبي ذلك. هويتُ بكلِّ ثقلي عليهما، وأوجعتهما. يجنّب حنانُ السجناءِ الآخرَ تهشّمَ جمجمته.

خلال مراجعاتي المتتالية للمحكمة، تعرّفتُ إلى سيّدٍ، نكاد نعرفه جميعاً، شابٌّ أشقر، محامٍ أو في طريقه ليكون كذلك، غير عسكري، أو ربّما مثيلٌ للعسكر، ولكنّه، رسمياً، ليس عسكرياً. إنّه أحد «مدنيّي» تلك الدكتاتورية المدنية-العسكرية. كان لديه قلمٌ يجعل السجناء يوقّعون به وهو يُظهِر المودّة حيالهم. كان قلمه لا يعمل سوى بزاويةٍ محدّدة للريشةِ على الورقةِ. فيردّد الأشقر الفتي باستمرار الجملة ذاتها:

«أمسكوا به هكذا، من فضلكم، ثمّة ييتو yeito.»

ييتو yeito، تعني، باللغة البورتونولية[1]، حيلة.

وأنا أكتبُ هذا العمل، ستكون قد مرّت ثمانية وعشرون

---

(1) portuñol: اسمٌ يُطلق على اللغة المحكية على الحدود بين البرازيل والأورغواي (N.d.T).

عاماً من تاريخ أوّل مرّة ذهبتُ فيها إلى المحكمة. لا زلتُ أكنُّ على نحوٍ غامضٍ ذات الاحتقار الذي كنتُ أكنّه آنذاك لذلك الملاك الصغير الأشقر، الوسيم، الأنيق، الودود والعابق بالطّيب. لا أكنُّ حقداً، لا له ولا للجلاّدين: أكنُّ احتقاراً.

خلال الفترات الأولى في الثُّكنةِ، كنتُ أحسب الأيّام. وفي لحظةٍ ما تخلّيتُ عن ذلك. الآن، خلال ذهابي الأوّل إلى المحكمة، لحظة التوقيع على الورقة، انتبهتُ أنّنا في الرابع والعشرين من تشرين الأوّل. إنّه يوم عيد ميلاد والديَّ، لقد وُلِدا في اليوم نفسه من عامين مختلفين. بلغت والدتي الثانية والأربعين من عمرها، ووالدي الثامنة والأربعين.

43

الآن، وبعد تقديمي للمحكمة، يحدوني الأمل ألاّ أُعذَّب بعد الآن. إذ يُعتَقدُ أنّه بعد تقديم المرء للمحاكمة، ينال، في النهاية، حقوق المتّهمين.

بعد بضعة أيام نُقلتُ إلى زنزانة في الطابق السادس من قسم الشرطة. كان هناك سريرٌ معدنيّ بلا حشيّة، والنافذة مسدودة. وكانت الزنزانة ضيّقة جدًا بحيث لا يمكن للمرء أن يمشي ولا أن يقف على قدميه، يمكنه فقط أن يجلس أو ينام على السرير. هذا لا يهمّ، إنّني في فندقٍ فاخرٍ مقارنةً بزنزانة الثُّكنةِ.

شيئاً فشيئاً، بدأتُ أكوّن في ذهني فكرةً عن المكان. هنالك المئات من السجناء في القسم، وقد خُصِّص الطابق الرابع للنساء، وبينهنّ حوامل، وصغيرات السنّ جدّاً. ويُسمى الطابق الثالث «الحشّة» لأنّه لا ماء فيه ولا كهرباء.

وبالمقابل، يُقال إنّ الزنزانات فيه مفتوحة وبوسع السجناء أن يتنقّلوا في أرجاء الطابق.

بدأت في تدبير أموري والتواصل مع سجناء آخرين. بعد يومين، خيِّل إليَّ أنّني سمعتُ مَنْ ينادي باسمي بالقرب من شبكة الدخول إلى الطابق. انفتح باب زنزانتي.

طُلب مني أن أخرج.

اقْتُدْتُ إلى مكتبٍ. كان هناك كابتنٌ من الجيش، طويل القامة، بهيئةٍ ساخطة. كُبِّلَت يداي خلف ظهري، ورُميتُ على كرسيّ. بدأ يسألني كيفما كان، عن أشياء لا صلة لها بي.

ليس لديه وقتٌ يُضيّعه، إمّا أن أُجيبه مباشرةً، وإمّا أن يصطحبني إلى ثُكنته في مدينة أخرى.

وحينها يمكنني التأكّد بأنّني سأنتهي بالزحف على الأرض وتقبيل جزمته.

سيجعلني أندم على كوني قد وُلِدتُ.

ما فُعِل بي حتى الآن لا يشكّل شيئاً، فلا زلتُ على حالي، وكأنّ أحداً لم يمسّني. إذا أخذني فلن يبقى منّي شيءٌ.

شتمني وأهانني بكلّ الوسائل الممكنة. إنّه فظٌّ، ويريد أن يبدو فظّاً. في البداية، لم أستطع الإجابة عمّا سألني

عنه، مع أنّه قد امتلك معلومة إضافية ما. عرفتُ أنّه ببساطة يسعى لتخويفي، ولكن، ومع أنّني أعرف ذلك، لم أستطع منع نفسي من الشعور بالخوف. أدركتُ أنّ هذا الحيوان المتوحّش قابلٌ لأن يُقدِم على ما يتوعّد به.

أخبرني أنّ رفيقاً، لا أعرفه، موجودٌ في ثُكنته، وأنّه جعل منهُ حيواناً صغيراً.

«يمشي عل الأربع مثل الحيوان. هذا ما سأفعله بك.»

حاولتُ أن أقنعه بأنّني لا أعلم عمّا يسألني، وفي الوقت ذاته، أن أتجنّب تركه يشكُّ في أنّني أكذب عليه. لم أرد العودة إلى التعذيب. عليّ أن أكون مقبولاً ظاهراً.

استمرّ الحديث، إن كان بوسعنا تسمية ذلك بحديث. لاحظتُ أنّه يَضجر، وربّما كان عليه القدوم إلى القسم ليستغلّ أوقات الضّجر في معرفة ما إذا كان بإمكانه اصطياد شيءٍ ما.

دخل أحدهم، وأراد أن يكلّمه. انشغل عنّي الكابتن. خرج من الغرفة. وعاد بعد لحظةٍ. رفع عنّي قيودي.

«خذوه.»

في اللحظة التي أُخِذْتُ فيها، أخبرني صارخاً:

«بعد ظهيرة اليوم، ستغادر معي!»

أمضيتُ النهار بالتفكير في ذلك الأمر. ليس هذا هو

التعذيب فعلاً، بل مجرّد تهديد به، ولكن رغم كلّ شيء، لم يغب ذلك عن ذهني للحظةٍ واحدة. هل قال ذلك لمجرّد تخويفي؟ هل سيأتي في طلبي؟

في وقتٍ متأخّرٍ من الليل، هدّأتُ من روعي. على الأقلّ، لن يأخذوني اليوم.

44

مضى أسبوعٌ. بعد الظهيرة، وبلا تمهيد، أُخْرِجتُ من زنزانتي:

«مع كلِّ أمتعتك.»

هذا يعني كيساً من البلاستيك يحتوي على فرشاة الأسنان ومعجونها، وصابون، ومنشفة وكتابُ لراي برادبوري أمكنني اقتناؤه.

«أين أنا ذاهبٌ، أَإلى زنزانةٍ أخرى؟»

لا شيء، ولا كلمة.

تبيّن لي فجأةً أنّهم لم يقودوني إلى زنزانةٍ أخرى. هبطنا بالمصعد حتى الطابق السفلي. كانت هناك سيّارة جيب. وُضِع لي القناع، وقُيِّدَت يداي خلف ظهري. وانطلقت بنا السيارة.

أنا الآن في ثُكنَةٍ أخرى. وُضِعتُ في عربةِ قطارٍ. لأنّه

لم يكن لدى الجيش متّسعٌ من المكان لذلك العدد الكبير من السجناء، فاستولى على عربات القطارات واستخدمها كزنازين. كان فيها كرسيٌّ، تركوني أجلس عليه.

شرعتُ أستعيدُ ذهنياً ما قد يسألونني عنه. قلتُ في نفسي ليس هناك شيء مهمّ. ولكن لا أحد يعلم أبداً. يمكنهم أنّ يعذّبوا كثيراً لأمورٍ تافهة. هذا لا يهمّ، لن يكون الأمر خطيراً. فنزلت عليّ السَّكينة.

أدركتُ أنّني «محنّك». أمضيتُ شهوراً في الزنزانة. أنا في صحّةٍ جيّدة، ونظيف، وتفكيري يعمل على نحوٍ سليم. لقد قاوم شبابي كثيراً.

بعد ساعةٍ من ذلك، شعرتُ أنّهم يدخلون عربتي. دخل أكثر من شخص، لم أتمكّن من تخمين عددهم.

من تحت القناع رأيتُ الجِزَم. كانوا ضبّاطاً. فالجنود لا يملكون هذا النوع من الجِزَم. وهم ضبّاطٌ من الخيّالة. وبالتالي، تغيّر السلاح المعني بأمري، من المدفعية إلى الخيّالة. لم يعنِ هذا التغيير شيئاً. أم يا ترى قد عنى شيئاً؟

الذين دخلوا، سخروا منّي، وذكروا كنيتي واسمي بتصغيرٍ واحتقار. رفعتْ يدٌ قناعي لبضع سنتمترات، كافية للكشف عن خدّي. وضع أحدهم فوّهة مسدّسٍ على خدّي. كان عليّ ألاّ أخاف، ولكنّه ضَغط بقوّة، فضغط حدّ الأستون على عظمة خدّي، وأوجعني ذلك.

«هل نقتله؟» قال أحدهم، غير الذي كان يمسك بالسلاح.

«كلاّ، الأحرى بعد حين»، قال صوتٌ آخر.

أدركتُ أنّهم ثلاثة.

سألني أحدهم إن كنتُ أعلم أين أكون.

سأستفزّهم. استطعتُ أن أختبرهم بقليلٍ من الجهد، وأن أرى ما هي طباعهم:

«لا أعرف أين أكون. ولكنّني أعلم أنّ هذه ثُكنة للخيّالةِ.»

كيف عرفتُ ذلك؟

من خلال الجِزَم.

سألني مَنْ كان يُمسك بالسلاح إن كنتُ أعرف مَنْ هو.

أجبته أن نعم.

ضحك الآخرون:

«إنّه يعرفك!»

أنزل سلاحه.

«ما اسمي؟»

«لا أتذكّر اسمك، ولكنني أعرف كنيتك.»

من جديد تعالت الضحكات.

«وما هي كنيتي؟»

أخبرته بذلك.

كان زميلي في المدرسة الثانوية، قبل ثماني سنوات. لم أره قط منذ ذلك الحين. لقد أثارتني ذاكرتي السمعية، التي احتفظت بصوت ذلك الشخص طوال تلك المدّة.

ملأت ضحكاتهم العربة.

انصرفوا.

45

هبط الليل. قُدِّم لي ما أتناوله. لم أرَ حشيّة. ربّما عليّ أن أنام جالساً. ولكن لا يزال الوقت باكراً، ولا بدّ من الانتظار. لم أرَ أيّ سجينٍ، ولم أفلح في تكوين فكرة عن المكان. العربة موضوعة في مكانٍ فسيح، تُسمع بجواره أصوات جنودٍ يمرّون باستمرار، ووقع أقدام على الحصى. لا أعلم أين يجري التعذيب. حاولت أن أشغل ذهني في ترتيب المكان ومراقبة الزمن وإيجاد إشارات تدلّني على شيءٍ ما. شعرتُ بأنّه من المهمّ معرفة مكان التعذيب، ولا أدري لماذا، طالما لا يهمّ أين يكون.

حينما اقْتُدتُ إلى المغاسل لم أستطع التحقُّق من أيِّ شيء. في مرحاض الثُّكنة، لم يُتِح لي أيُّ معلمٍ تحديد مكاني.

تُهت وشرد فكري دون أن أتمكّن من السيطرة عليه. مرّت ثلاث أو أربع ساعات. سُمِعَ وقعُ خطى على الحصى. جاؤوا إليّ:

«أنزِلوه!»

أنزلني الجنود درجات العربة.

ذهبنا إلى هناك، وهناك بدأ الجدّ.

دخلنا إلى مكانٍ غريب. أوّل شيءٍ حدث هو أن جعلوا رأسي يصطدم بشيءٍ ما. فركلني أحدهم قائلاً:

«احذر العمود!»

لا أعرف لماذا جعلني هذا التفصيل أعلم بأنّني داخل خيمةٍ.

بدأت الصيحات، وانهالت الضربات عليّ. ولكن لم يكن هنالك شيءٌ خطير.

«نعم، الآن يا ليسكانو ستعرف ما هو ناجع.»

لطمني أحدهم على وجهي. أوجعني ذلك، ولكنّه أزعجني أكثر ممّا أوجعني. لقد ضُرِبتُ لمرّة وحيدة على وجهي بلكمةٍ، في الثُّكنة الأولى. لا يهمُّ الضرب على الوجه في شيء. أريد القول بأن ذلك لا يسفر عن نتيجة إلا أنّه أمرٌ مزعجٌ لكونه قد يترك آثاراً. ويُفضّل على ذلك الضرب بالكرباج على الأيدي والأرجل. إنّه يؤلم كثيراً ولكن آثاره لا تُرى. لا أعلم لماذا، ولكنّني أفضل ضربة قويّة على الظهر أو الصدر من لكمةٍ على الوجه.

أدركتُ أنّهم مبتهجون. أو أنّهم ربما ليسوا مبتهجين

ولكنّهم يتسلّون بي. وعلمتُ بأنّهم قد أوقفوا امرأةً كانت صديقتي قبل عامين أو ثلاثة أعوام.

قلتُ لهم بأنّني لم أكن أعرفها ولا أدري لماذا اعتقلوها.

قالوا لي بأنّ لها رأياً مختلفاً.

«مستحيل.»

«سنرى ذلك.»

لم تكن لديهم أسئلة ليطرحوها. هذا ما أفصح لي به عقلي. ولكنّ لا بدّ لهم من القيام بمناوبتهم. ويمكنهم القيام بتعذيبي حتى وإن لم تكن لديهم أسئلة يطرحونها عليّ.

أجلسوني. رفعوا قناعي. الأمر سيّان عندهم إن رأيتهم.

دفعني ذلك إلى أن أحاول إظهار وجهٍ آخر لشخصيتي، أن أبدو جريئاً، «محنّكاً» بالتعذيب. طلبتُ منهم سيجارةً. قالوا لي بأنّهم سيقدّمونها لي إن تعاونتُ معهم.

الأمر سيّان عندي. فليعطوني السيجارة، ولنثرثر. ولكنّني لا أعرف أيّ شيءٍ يهمّهم.

أشعل الذي كان أمامي، وهو نقيبٌ، سيجارةً ووضعها بين شفتي.

طلبتُ منهم أن يضعوا قيودي من الأمام.

ضحكوا، اعتبروا أنّني أتخابث، وأُسيءُ استعمال «ضيافتهم».

وضعوا قيودي مثلما طلبتُ منهم.

تكلّموا صارخين، وقاطعوا كلام بعضهم. وأدركتُ أنّ الأمر عندهم سيّان إن استجوبوني أم لا. كانوا يتفوّهون بترّهات وحماقات.

فجأةً وقعوا على ما يسألونني عنه.

هل نمتُ مع المرأة التي كانت صديقتي، والتي اعتقلوها؟

سألوني عن ذلك بالطريقة الأكثر بذاءةً وفُحشاً.

لم أُجِب.

ألحّوا عليّ بالسؤال.

هل كانت عذراء حينما عرفتها؟ ماذا تُجيد في السرير؟

أزعجني ذلك أشدّ الإزعاج. هذا أمرٌ لامنطقي، ما كان لهذا أن يهمّني، ولكنّني عجزتُ عن تحاشيه.

لم أَجِب بشيء.

استمرّوا في أسئلتهم المُبتَذَلة.

كيف تمارس ذلك، كيف تُمارس ذلك؟

شعرتُ أنّ الصمت ليس ردّاً كافياً. ولكي يكون ما

أعتقده واضحاً تماماً، كلمة بكلمة، قلتُ لهم، بصوتٍ خفيضٍ، بلهجة شديدة وحاسمة:

«لن أُجيبكم بشيءٍ بهذا الشأن.»

ما أردتُ أن أُفهمهم إيّاه بتلك اللهجة هو إن كانوا يفهمون أنّ رجلاً حقيقيّاً لا يروي هذه الأمور ولا يطرح هذه الأسئلة. فأنا، بالقليل الذي بقي منّي، وحتى في هذه الظروف، لا زلتُ رجلاً حقيقيّاً حيال هذه المسألة.

خيّم الصمتُ على المكان.

ربّما أنّني أخطأتُ وأنّهم لم يفهموا مغزاي، وبالتالي، سيغدو الأمر صعباً. سيتوجّب عليّ القيام بشيءٍ آخر، ولا أريد ذلك. لا أريد التحدّث إلى هؤلاء الأشخاص، لا أُريد أن يضربوني.

ولكن بلى، لقد فهموا، وغيّروا الموضوع.

على كلٍّ حال، وبسبب رفضي الإجابة على أسئلتهم، خسرتُ سيجارتي. وقد انتزعها أحدهم منّي على نحوٍ خاطفٍ واقتلع معها قطعةً من جلد شفتي. فأوجعني ذلك، وأسال الدم من شفتي.

قال النقيب: «حسناً، هذا يكفي.»

قال الذي كان زميلي في المدرسة: «نعم كفانا إزعاجاً لأنفسنا.»

قلتُ في نفسي: سيباشرون بتعذيبي.

أوقفوني على قدميّ.

«خُذْه إلى الاصْطَبل»، قال النقيب لجنديٍّ.

أدركتُ أنّهم لن يعذّبوني الآن.

أعادوا وضع قناعي. في الطريق، أدركتُ أنّنا لا نعود إلى العربة. وأنّ الضابط قد قال: «إلى الاصطبل».

قلتُ للجنود الذين كانوا يصطحبونني أنّني أريد أخذ حقيبتي من العربة.

تـردّدوا. رفـضـوا ذلـك. الأمـر الـمـعـطـى هـو «إلـى الاصطبل».

46

دخلنا إلى مكانٍ هو، بالفعل، اصطبل. لمحتُ من تحت قناعي حُزَماً. إنّها علفٌ للأحصنة. رموني على حشيّةٍ. فكّرتُ في حقيبتي في العربة، لقد خسرتها. فكّرت كم سيلزمني من الجهد لتُعاد إليّ.

من على حشيّتي، شرعتُ أرنو إلى حولي. كانت الحُزَم والحشايا تتوالى، حُزمة فحشيّة، وهكذا. على كلّ حشيّة رجل أو امرأة. شيئاً فشيئاً، تحرّك أحدهم، تكلّم، طلب شيئاً ما، اقتيد إلى التعذيب، أُعيدَ مبلّلاً. رأيتُ أنّ عدد الرجال أكبر من عدد النساء.

بعد هنيهةٍ، رُمي لي كيسي البلاستيكي مع أغراضي، وقد سقط بالقرب من رأسي.

مرّت الأيام. لم أُعذَّب، ولم أُستَجوَب. نظّمتُ حياتي على حشيّتي. رأيتُ وجوهاً معروفة. بدأتُ أرى النساء. كنّ مقنّعات، ولكن خُيِّل إليَّ جسدهنّ تحت ثيابهنّ، وسُمِعَ

صوتهنّ. إنّها لمتعةٌ رؤيتهنّ حتى هنا، وحتى في هذه الظروف، حتى وإن كنّ خائرات القوى. ثمّة رائحةٌ أخرى في الهواء، رائحةُ امرأة تمتزج برائحتنا ورائحة الاصطبل.

لقد انقضى أسبوعٌ على وجودي هنا، دون أن أتزحزح عن حشيّتي.

بعد ظهيرة أحد الأيام، حضر رقيبٌ.

أمرني أن أُعدّ أغراضي. أي كيسي البلاستيكي.

انصرفنا. لقد جلبوني إلى هنا دون جدوى. لم أدرِ في أيِّ يومٍ كنّا، كما لم أدرِ إلى تلك اللحظة أنّ تلك المرّة ستكونُ الأخيرة التي أمرّ فيها على ثُكنةٍ، ويوضَع لي فيها قناعٌ، وأمرُّ فيها بقاعةِ تعذيبٍ.

الجلوس وانتظار
ما سوف يحصل

1

لا أدري لماذا رفعوا قناعي وحلّوا قيودي قبل أن يُصعِدوني في سيارة الجيب. ربّما لسببٍ له علاقة بإدارة الأجهزة، أو لأمرٍ غريبٍ حول طريقة نقل معتَقَلٍ. فكّرت في تلك المسألةِ للحظةٍ ولم أفلح في فهمها.

نزع أحد الجنود ربطة عنقه، وربط بها إبهاميّ، ثمّ ربط بالربطة نفسها معصميّ. لم أكن أعرف ذلك الاختراع الذي يجاري القيود في فاعليته. إذ لا يمكن القيام بأيٍّ شيءٍ كان حينما يكون الإبهامان مربوطين. شرد ذهني بتلك المعرفة الجديدة. ولحجب الرؤية عُصِبَت عيناي.

جلستُ عكس اتّجاه السير. كان في الأمام السائق ورقيبٌ، وجنديٌّ إلى يميني وآخر إلى يساري. لاحظتُ أن مرتبتي قد انخفضت كثيراً، فكنتُ حتى مجيئي إلى هنا مرتبطاً بمسؤولي الذي كان على الدوام ضابطاً. والآن يتم نقلي تحت إمرة رقيبٍ. سُعدتُ بمعرفة ذلك. من الأفضل

للمرء ألاّ يكون «مهمّاً»، وألاّ يفطن إليه أحد. لم أكن قط شخصاً «مهمّاً»، ولكنّهم كانوا يعتقدون عكس ذلك.

في سيارة الجيب لم يجرِ الحديث عن أيّ شيء. من خلال تحريك الحاجبين نجحتُ في تحريك العُصابة. رأيتُ أين نكون، وتعرّفتُ إلى الشارع. بدأت أفكّر أن أرمي بنفسي من السيارة. ولكن ليس بغرض قتل نفسي، وإنّما للإفلات منهم. إذا قفزتُ أثناء سير السيارة فقد أقعُ على ظهري وقد يرتطم قفا رأسي بالأرض. سينبغي عليَّ القيام بدورةٍ في الهواء كي لا أسقط على الإسمنت. كان كلّ جندي مسلّحاً ببندقية M2، وهي آلية وملقّمة وعلى الأرجح غير مؤمّنة. عندما أستعيد توازني وأهمّ بالجري، سيكون لديهم الوقت الكافي لإطلاق النار عليّ. طلع النهار. فكادت احتمالات الإفلات منهم تصبح معدومة. وإذا أفلتُّ منهم، فإلى أين سأذهب؟ ليس لديّ أي مكانٍ أذهب إليه، ولا أدري مَنْ اعتُقِلَ. بينما كنتُ أفكّر في خطّة الفرار تلك، وصلنا إلى المركز. فات الأوان على المحاولة.

فيما بعد، طوال سنوات، وأنا أحلم يقظاً بفراراتٍ محتملة، ندمتُ على تلك الفرصة على أنّها الوحيدة التي كانت مواتية لي للخلاص. قلتُ في نفسي لو أنّني كنتُ قد أقدمتُ عليها، لربّما كنتُ سأنال الخلاص. ربّما كان الجنود سيطلقون النار لبعض الوقت، وكنتُ سأجري، ولما

كانوا سيلحقون بي أبداً. وأيضاً ربّما كنتُ سأموت في ذلك الصباح. هل كان من الأفضل لي أن أكونَ ميّتاً من أن أكون سجيناً؟ كلاّ. ولكن تعاود الصور حضورها، من حينٍ لآخر، في حلم السجين: الفرار، والجري، الجري في سهلٍ فسيحٍ مُنارٍ، بلا حدود وبلا حواجز. في قلبه، نورٌ شفقيٌّ أو صباحٌ باكر. لم أفلح أبداً في معرفة ما إذا كانت الشمس تغيب أم تشرق. أركض، وأركض. فجأةً أشرع في المشي، والبحث. لا دروب، بوسعي الذهاب في أيّة جهة كانت، وأتبع نزوة قدميّ، فأمشي وأمشي بلا نهاية. إنّها الحرية، الحريّة المرومة، إمكانية القرار والاختيار والفعل والتمنّع، والكفّ عن الفعل.

كانت الحرية، لسنواتٍ، وإلى الأبد، هي الجري في سهلٍ فسيحٍ ينيره الشفق.

2

بعد العودة من ثُكنة الخيّالة إلى قسم شرطة مونتِڤيديو بعدّة أيام، وقع الحدث الكبير: نُقِلتُ إلى زنزانةٍ فيها سجناء آخرون. كانت حجرة من أربعة أمتار بثلاثة. ونحن أربعة عشر سجيناً. وكنّا «أمانة». كنّا مرتبطين بالسجن المركزي، ولكن ببساطة نحن هنا كأمانة. كان ذلك يُضحكنا، حيثُ كنا نُعامَل كبضائع.

كان ضيق المكان لا يعنيني. للمرّة الأولى منذ ستة أشهر، يمكنني التحدّث إلى أحدٍ ما غير مسؤولي. وبدأت أعرف ما حدث في البلاد وفي ثكناتٍ لم أزرها. توجد كتبٌ، وإن كان من الصعب العثور على ركنٍ والانزواء فيه للتركيز أثناء القراءة. في المساء، يمتد النقاش إلى وقتٍ متأخّرٍ جداً. لا توجد حشايا للجميع لأنّه لا محلّ يسعها. ننام كيفما استطعنا، ولكن هذا أفضل بكثير من الزنازين وحتى من زنزانتي الأولى. الجو ليس بارداً، ونروي لبعضنا

الحكايات ونتبادل المزاح. وهذا هو الجيّد. الرفاق وليس الراحة.

تبيّن لي بعد بضعة أيام أنّ الوجود حبيساً هنا، مع الكثير من الناس، يولِّد بعض التوتّرات والمزاحمات البسيطة.

بعد ظهيرة ذات يوم، جُلبَ إلينا رفيقٌ كان معزولاً منذ ستّة أشهر. قُدِّم له ما يتناوله من طعام وما يقرأه، وكلَّ ما أراده.

لم يهتمّ بأيِّ شيء، بأيِّ شيءٍ عدا النقاش. أخذ يخفّف الإنارة وشرع سجينان بدقّ الطبل على آنية بلاستيكية وعلى صندوق. نهض الوافد الجديد، وبدأ بالرقص لبضع خطوات.

تعالت الصيحات ودوّى التصفيق.

استمرّ في الرقص لبعض الوقت.

ثمّ ما عاد يتوقّف، استمرّ يرقص. اهتزّ جسده في إيقاعٍ متقنٍ.

أُخليت فسحة وسط الحجرة، وتشكّلت تدريجياً حلقة من الرجال الجالسين أرضاً، على الحشايا، من حول الراقص.

والوافد الجديد يرقص ويرقص. دار من حول نفسه

مغمض العينين، رفع ذراعيه، هزّ وركيه وكتفيه، تمايل بجسده، توقّف، ودار بالاتجاه الآخر.

تَعِب الموسيقيّون وملّوا، ولكن لم يكن من الممكن إيقاف الموسيقى، استأنف آخرون الدقّ على الطبول، على الأواني البلاستيكية الهالكة. لا بدّ أن تتواصل الموسيقى ليستمرّ هذا الرجل في التحليق، في الرحيل، في رقصه، في حالته الخاصّة، في سعادته. إنّه سعيد غاية السعادة، تتراقص السعادة على وجهه، وفي عينيه المغمضتين، وعلى يديه وعلى جسده الطليق. لقد مرّت شهورٌ على وحدته، دون أن يتحسّس جسده حرارة جسدٍ آخَر صديقٍ بقربه. ورقص، رقص جسده لساعة، لساعةٍ ونصف.

أَيكون مريضاً؟

إذا كانت الحال كذلك، فهو مريضٌ سعيد.

حينما توقّف عن الرقص أخيراً، ابتسم، ورنا إلينا. وأخذ يتكلّم.

هل يوجد ما يأكله؟

إنّه شخصٌ آخر، نسي بأنّه أبقانا لساعةٍ في الانتظار، فرحين، مستغرقين. لقد زار المكان الذي كان بحاجةٍ إلى زيارته، هيّا اعرفوا أين ومع مَنْ. الآن، هو شخصٌ آخر وهو هنا. يريد أن يأكل.

3

ذات يوم، أقمنا احتفالاً. فقد أُخبِر أحد رفاقنا في الزنزانة بأنّ زوجته، المعتقَلة في زنزانةٍ أخرى، قد وضعت طفلةً، وأنّ الأمّ والطفلة بخير. فاضت عينا الأب بالدموع. عانقناه وغنّينا لسعادته، ومازحناه.

فقام الأب، الطافح بالعزم والتصميم، بأمرٍ لا يمكنُ لأحدٍ أن يصدّقه. وجد إبرةً وخيطاً، ونزع قميصه وشرع يقصّه قطعاً، وأخذ يخيط تلك القطع. ثمّ أخذ أداةً للتعليم على القماش. لقد أدهشتنا مهارة يديه، التي صنعتا خلال نصف ساعةٍ لُعبةً بيدين طويلتين وأهدابٍ طويلة، وشفتين حمراوين. إنّها هديّته للطفلة التي وُلِدَت للتوّ. كانت اللعبةُ تبدو جميلة. كانت تلك المرّة الأولى، والوحيدة حتى الآن، التي أرى فيها «ولادة» لُعبةٍ. لعبة فريدة، وُلِدَت بيدي رجلٍ، وسط الرجال.

4

بعد ذلك بأسبوعين، نُقِلتُ من جديد. وسأذهب هذه المرّة إلى بونتا دو ريلس، وهي عمارة وسط الريف، ولكن بالقرب من المدينة، كانت مدرسة اكليريكية كاثوليكية.

بعد أسبوع، نُقلتُ من جديد. فقد نودي عليّ ذات يومٍ عند الفجر، واقتُدتُ إلى مكانٍ كان مُصلّى سابقاً. كانت هنالك مجموعة تقارب خمسة عشر سجيناً.

إلى أين سنؤخَذ؟

وعرف أحدهم بأنّنا سنذهب إلى إصلاحية ليبيرتارد. لقد سمعنا الكثير ممّا يُقال عنها، ولكن لا شيء سوى الإشاعات. ولا أحد يعلم كيف تكون، ولا ما ينتظرنا هناك.

أركبونا في شاحنة مغلقة تماماً، ندعوها «خزانة الثياب». وقُيِّدنا بطريقة عجيبة. ونحن نجلس في أرضية

الشاحنة، شكّلنا حلقة، وجوهنا إلى داخلها. قُيِّدَت يدي اليمنى إلى اليد اليسرى للذي على يساري، أيّ اليد الأبعد منّي، ويدي اليسرى إلى اليد اليمنى للذي على يميني. إلى أن انغلقت الحلقة.

سرنا لأكثر من ساعةٍ. كانت الإصلاحية تبعد ما يقارب خمسين كيلومتراً من مونتِڤيديو. حينما وصلنا، بدأت البلبلة الكبيرة. نُزِعَت قيودنا ورُمينا إلى أسفل الشاحنة، مع أكياسنا. حينما هويتُ، رفعني جنديٌّ مزوّد بدبّوس عن الأرض وضمّ يدي إلى ظهري وأخذ يركض خلفي مرغماً إيّاي على الركض بكيسي. صعدنا درجاً. صعدناه راكضين، لعدّة طوابق، لا أدري كم عددها. ضاق نَفَسي، وتَعِب الجنديُّ بدوره، ولكنّه ظلَّ يدفعني أمامه.

انتهى بنا المطاف إلى الصعود مشياً. رأيتُ صفّاً طويلاً من الأبواب المعدنية المطلية باللون الرمادي. كان جنديٌّ يقف أمام بابٍ مفتوحٍ. حينما وصلنا إليه قذفني الجندي الآخر إلى داخل الزنزانة، وانصفق الباب على ظهري، وكذلك المزلاج.

كان الوقت فجراً.

نظرتُ عبر النافذة. رأيتُ أسلاكاً شائكة، وأضواءً. كنّا وسط الريف ولكنّني لم أره. عوضاً عنه، تراءى لي الأُفق.

حاولتُ أن أُميّز الاتّجاهات. إذا كان هذا هو الأُفق، إذاً أَيكون هناك ريو دو لا بلاتا؟

أعتقد ذلك.

أمّا وقد ميّزتُ الاتّجاه، تمدّدتُ ونمت.

5

استيقظتُ على صفق كوّة الزنزانة. جُلِب لي الفطور. ما كدتُ أتناوله حتى أُخرجتُ جرياً. هذه المرّة، نزولاً على الدرج، وهذا أكثر يُسراً. وُضعتُ في مكان توجد فيها رشّاشات الماء. وبصيحاتٍ قويّة، أُمِرتُ أن أنزع ثيابي وأن آخذ دوشاً. لم تكن لدي منشفة، فنشّفتُ جسمي بثيابي. ثمّ أعطوني بزّة رمادية اللون وزوجٍ من الأحذية. فلبستُ وانتعلت. أُجلستُ على كرسيٍّ وجزّ جندي شعري تماماً. اقتُدتُ لبضعة أمتارٍ من مكاني نحو بابٍ مقابلٍ.

إنّها غرفة التمريض. وسألني رجالٌ يرتدون سترات بيضاء تحتها بزّات خضراء اللون وينتعلون جِزَماً عسكرية.

«هل أنت مصابٌ بداء السكّري، هل أُصِبتَ بالسلِّ، هل يؤلمك قلبك، هل أنت مصابٌ بالزُّهري. . .؟»

«الآن، تجرّد من ثيابك.»

تفحّصوني. لم يروا جراح قدميّ. أخفيتها عنهم.

«استدر»

«انحنِ»

«باعد بين ردفيك.»

لم أدرِ ما يريدونه. لم أتحرّك.

ربّت أحدهم بإصبعه على كتفي.

«هل سمعت؟»

قلتُ أنّني لم أفهم.

قال ساخراً:

«أمسك بردفيك وباعد بينهما. هل فهمت الآن؟»

لقد فهمت. الردفان في حالٍ حسنة.

«الذي يليه!»

خرجت وأُعِدتُ إلى الزنزانة نفسها. ونحن ننتقل إلى الزنزانة، قيل لي أن أستردّ كيسي الموجود في الرواق الطويل. يا لها من سَكينة تنزل على السجين حينما يلتقي بكيسه الذي يُعدّ بمثابة بيته حيث يحتوي على كلِّ ما يحتاج إليه، ما يُسمَح له باقتنائه، ما هو مسموحٌ به.

في الزنزانة، وضِعَت حشيّة، ووسادة، وبطانيّتان، وملاءتان، ووجه وسادةٍ، وصحنٌ عميقٌ، وآخرٌ مسطّح، وثالث للتحلية، تفوح من جميعها رائحة المطهِّر.

حينما فرغتُ من تفحّص الأغراض الجديدة التي سُلِّمَت لي، وبينما كنتُ أحاول أن «أرى نفسي» في بزّتي

الرمادية والخشنة برقمٍ مكتوبٍ على صدرها، وبينما شعرتُ بالبرد لأنّني لم أكنَ أرتدي أيّ شيءٍ تحت بزّتي، فُتِحَ الباب.

كان في الخارج رقيبٌ وجنديان.

أمروني أن أضبّ حوائجي. كلّ شيء، حتى الحشيّة.

الآن لديّ الكثير من الأشياء ومن الصعب نقلها جميعها دفعةً واحدة. فعلتُ ما بوسعي. غلّفتُ حشيّتي ببطانيّةٍ، ووضعتُ حوائجي داخلها، وحملتها على كتفي. وتركتُ يدي الأخرى شاغرة لأحمل بها كيسي. نزلنا الدَّرَج. كان ذلك عسيراً، ولكنّني مع الأعوام اعتدتُ على أن أنقل «كلّ شيء» دفعة واحدة.

وصلنا إلى طابقٍ آخر، لا أدري أيّ طابقٍ. وُضعتُ في الزنزانة رقم 14. نظرتُ لبرهةٍ من خلال النافذة، لم تكن في الريف شجرةٌ واحدة. لا بدّ أنّ يكون هذا الخطّ في الأفق ريو دو لا بلاتا أو ريو سانتا لوسيا.

أعددتُ سريري، وأعدتُ ترتيب حوائجي. جلستُ وانتظرت. لم أدرِ ماذا أنتظر، ولكن لا بدّ من انتظار شيءٍ ما. سأعرف ذلك بعد وقتٍ طويلٍ جدّاً: أجلس في انتظار عربة المجانين، العربة التي ستقلّني ذات يوم في الرحلة العبثية نحو الحرية.

6

أنا في الطابق الثاني للمؤسسة العسكرية للسجن الانفرادي رقم 1، المعروفة بإصلاحية ليبيرتارد. أنا في الثالثة والعشرين من عمري وأنا المعتقل رقم 490. نحن في الثالث والعشرين من تشرين الثاني 1972، على ما أعتقد. أعرجُ من قدمي اليمنى. سأقضي في هذا المكان وفي هذا الطابق اثني عشر عاماً وأربعة أشهر وعشرين يوماً.

هنا، سأبلغ سنّ الرشد، وسيغزو الشيب شعري، وسأقيم أفضل صداقاتي، وسأقرأ المئات من الكتب الجيّدة، والمتوسّطة، والرديئة والعديمة القيمة. هنا، سأتعرّف على الكثير من السجناء الآخرين، وسأسعى إلى معرفة شيء ما عن نفسي. سأتألّم من البرد، وسأعرف العقوبات، والأمراض، والضيق، والقلق، وخيبة الأمل. سأعيش مآسيَ جديدة، كبيرة وصغيرة، مآسيَّ أنا ومآسي

الآخرين. سأكون شاهداً على الأعمال الخارقة للتضامن والحنان والمحبّة من لدن رجالٍ، حالهم كحالي، محرومين من كلِّ شيء. سوف أشعر بأنّني بدأت أشيخ. سوف أبدأ بالكتابة. وسوف أعزم على أن أكون كاتباً.

حينما غادرتُ الطابق الثاني، عرجتُ مثلما كانت الحال في البداية، ومرّة أخرى من القدم اليمنى، من جراء التواءٍ في المفاصل لحق بي أثناء لعب الشوط الأخير من مباراة كرة القدم التي كان السجناء السياسيون قد لعبوها في هذه الإصلاحية. في الثالث عشر من آذار 1985، اقتُدتُ إلى قسم شرطة مونتڤيديو، وأمضيتُ فيه ليلةً في الطابق الرابع، مستلقياً على حشيّةٍ لأنّني كنتُ عاجزاً عن المشي. حينما تركتني العربة أمام بيت والديّ، لم يعودا موجودين. انتظرتني أختي، وبكينا معاً لبرهةٍ. نمتُ في وقتٍ متأخرٍ جدّاً تلك الليلةِ.

في اليوم التالي، استيقظتُ في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، وقد استبدّت بي فكرة أن أفعل «شيئاً ما» بحريّتي. لم أعرف ما ستكون عليه حياتي، باستثناء أمرٍ واحدٍ: وهو أنّني سوف أبيّضُ أوراقي التي كتبتها في السجن، **بيت الطاغية**، **المنهج وألاعيب أخرى للسجن**، **المقرّر**، **يوميّة المقرّر**، **أشعاري**، **ومذكّراتي**، وأنّني سأنذر نفسي للكتابةِ. لا أعلم إن كان ذلك سيكون لما تبقّى من

حياتي، ولكن على الأقلّ إلى اليوم الذي لن يعود لديّ ما أقوله. الكتابة، حتى إشعارٍ آخر، هي التي ستكون محور حياتي.

في ذلك الصباح، شعرتُ أنّ حياتي تخصّني وحدي وهي ملكٌ لي، لا لأحد سواي، وأنّه بوسعي أن أفعل بها ما أشاء. وبدا لي فجأةً أنّ ذلك أصعب بكثير من أن أكون سجيناً.

في الخامس عشر من آذار، كانت أولى ساعاتي كرجلٍ حرٍّ طليق. بعد ثلاثة أيام، في الثامن عشر من آذار، سأبلغ السادسة والثلاثين من عمري. في السادسة والثلاثين، لا يزال بمقدورنا أن نفعل الكثير. رغماً عن الزمن المقضيِّ في السجن، لا يزال جسدي سليماً وقويّاً. كم من السنوات بقيت لي؟ وكم من السنين سيكون بودّي أن أعيش؟ ثلاثون؟ ليس بهذا المقدار. عشرون؟ لنقل عشرين. خلال هذه السنوات العشرين سيكون عليّ أن أعيش حريّتي، وأن لا أخطئ أبداً، أو أن أخطئ أقلّ ما يمكن. إلى تلك اللحظة، كنتُ أعتقد أنّني قادرٌ على بلوغ ذلك، على أن أضع نصب عيني هدفاً وأسعى إليه، في مواجهة كلّ ما سيكون عقبة أمامي، دون أن أرتكب أخطاء.

لم أدرك بأنني بتلك الطريقة سأبقى، دون أن أشاء ذلك، ودون أن أعرف ذلك، ودون أن أصدّق ذلك،

لسنواتٍ طويلةٍ، رهينة الرغبة الملحّة للسجناء: الشغف باستثمار الوقت، وبالعمل، وبالتعلّم، وبالمعرفة. وبتلك الطريقة ذاتها، ستبقى أمورٌ كثيرة بمنأى عن اهتمامي. وحينما اكتشفت ذلك، كان الأوان قد فات مرّة أخرى، ولكنّه كان الخيار الذي اخترته. ذلك العزوف، وذلك الاختيار لبعض المسائل أهتم بها تاركاً بعضها الآخر جانباً، هي طريقتي في ممارسة حريّتي.

في بعض الأمسيات، رويت، وسط أصدقائي، حكايات مفرحة عن السجناء، ولكنني رفضتُ لأمدٍ طويلٍ الكتابة عن السجن. شعرتُ أنّني غير قادرٍ على أن أروي، كتابةً، شيئاً سوى سلسلة لامتناهية من التنكيد، المجرّد من المحتوى ومن القيمة الأدبية.

وستمرُّ سبعة وعشرون عاماً قبل أن أجد صوتاً يمكنه الحديث عن الزمن الغابر. ذات يومٍ سوف يدرك هذا الصوت أنّ للعلاقة بين الفرد المعزول والكلمات ما يكفي من القيمة والفائدة الأدبية لتُروى، وسوف أكتبُ لغة العزلة، وسأعتقد أنّ هذا هو كلّ ما أنا قادرُ على قوله.

ولكن في يومٍ آخر، بعد عامٍ من ذلك الحين، سوف يفتح الصوت، فجأةً، طريقاً وسوف يفرض نفسه عليّ، ويرغب في الكلام، والقصّ، بقيمةٍ أو بدونها، بجودةٍ أدبيةٍ أو بدونها. وسيكون من المستحيل على الصوت أن ينقطع،

وسيملي عليّ ما أكتبه، وسينتزع من النسيان وقائع ومشاعر وأحاسيس لم أكن أتذكّرها.

إذاً، سأكون في الحادية والخمسين من عمري، وسأكون رجلاً في عمرٍ معيّنٍ، وهو أسلوبٌ لبقٌ للقول بأنّني دخلتُ في مرحلة الشيخوخةِ. كما أنّني سأكون تائهاً تماماً في مواجهة ممارسة حريّة 14 آذار 1985، يوم كنتُ في عربة المجانين. وسأظلّ أبحث عنها، وأمارسها في ذاتي، وفي الاعتقاد أحياناً بأنّني قد وجدتها، والشعور أحياناً أخرى بأنّني قد فقدتها. في بعض الأيام، لأيامٍ قليلةٍ وحزينةٍ، ولأوقاتٍ رديئةٍ، سأقول في نفسي إنّ سنوات سجني قد انتزعت منّي الفرص.

كفرص الدراسة مثلاً. ولن أشعر أبداً، ولا للحظةٍ، أنّ السجن قد أفقرني روحيّاً.

ولهذا السبب، سأكتب ذات ليلةٍ من 1999، بعد سبعة وعشرين عاماً من توقيفي:

قبل ثلاثين عاماً، في السلطة أو أمواتاً، كنّا شباباً كثيرين، وكنّا قد ولجنا الحياة لكي نغيّر العالم.

مرّت الحياة، ولا شيء مثلما كنّا نقول.

كان السجن، كان التعذيب، وكان القتلى بالآلاف.

حتى والحال هذه، حينما نلتقي، لا تزال ذكرى وهم الشباب تملأُ قلبنا الذي تجرَّأ ذات يوم على الإيمان بالكثير من الأمور.

فأقول في نفسي حتى لو أن وسيلة أخرى كانت قد أُتيحت لي لما كنتُ أردتها.

لأنّه، وعذراً لإيماني بذلك، أدين لذلك الوهم بمتعة التعرّف إلى بعض أفضل الناس.

7

لا يزال جسدي، الذي كان طوال سنوات عديدة الشيء الوحيد الذي كنتُ أملكه، على الرغم من الضربات والمآسي والتقزّز الذي حدث وشعرتُ به حياله، وفيّاً لي اليوم على درب الشيخوخةِ كحيوانٍ أليف.

أودُّ أن أقول ذلك، وأن أخبره ذلك، بالكلمات الأكثر عاميّةً التي يمكن لرجلٍ اعتاد العمل بالكلمات أن يعثر عليها: أودّ أن يكون بمقدوري اختيار موت جسدي، باليوم والمكان والطريقة. أريد لموته أن يكون وقوراً وهادئاً. وأريد أن أقول شيئاً لامنطقياً على الإطلاق: أودُّ أن تكون عظامي في يومٍ ما مع عظام والديّ، إن أمكن ذلك. الشيء الوحيد الذي طلبته من جسدي تحت التعذيب، هو أن يسمح لي ذات يوم أن أنظر إلى وجهيهما باعتزاز.

مونتڤيديو

أيلول 2000– أيار 2001

كارلوس ليسكانو

عربة المجانين

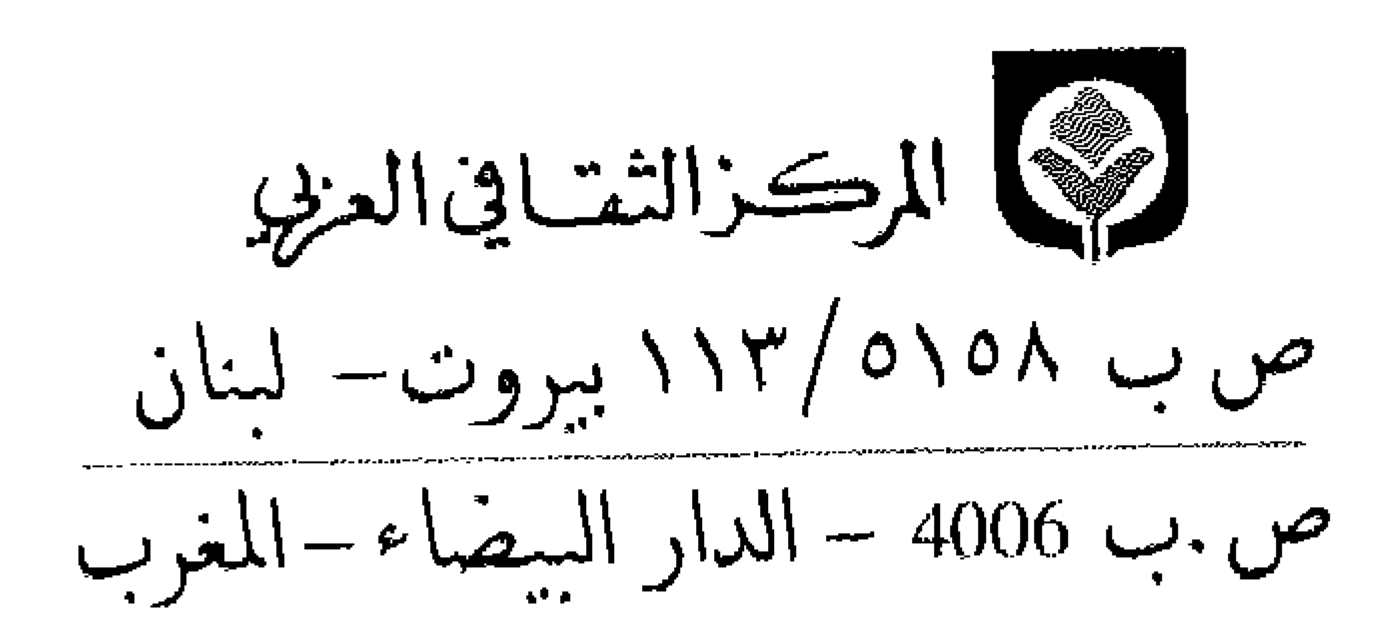
عن السجن السياسي في الأورغواي، حيث كان المخاض الصعب والقاسي، وحيث قمعت محاولات قلب النظام السياسي بكل قسوة، يكتب ليسكانو.

حين يقرأ القارئ العربي تجربة «كارلوس ليسكانو» مع السجن، تحضره صورة السجن والسجين والسجّان، وطرق التعذيب... كصور مألوفة، تشبه ما في سجوننا.

لكن «كارلوس ليسكانو» يكتب عن السجن بطريقة أخرى، مختلفة، فهو عنده تجربة حياة، وليس مجرّد مرحلة قاسية من العذاب والألم. يتحدث عن التعذيب وحياة السجن بلغة وإحساس يجعل من تلك الفترة جزءاً مكوّناً أساسياً من حياته، يكتب عنها بلغة الأدب، ليس أدب السجون أو أدب التعذيب أو المأساة، بل بلغة الأدب الجميل.

حين تنتهي من هذا الكتاب، لا يترك في نفسك تلك الا ذلك الغضب الذي يميز ما تقرأه عن حياة السجون، بل يتر ذلك الإحساس بأنه رغم العذاب والألم، ورغم سقوط الشهداء، فإن عربة المجانين وصلت إلى مكان آمن.


ISBN 9953-68-169-4
9789953681696


المركز الثقافي العربي
ص ب ٥١٥٨/١١٣ بيروت- لبنان
ص.ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب